الى القارئ

مع مجلة « التربية » الفرنسية

إن تفتحنا على الخارج وتطلعنا الى ما يكتشف وينشر ويذاع في دنيا التربية والثقافة والفكر ، واعتبارنا بما تتكشف عنه العبقرية الانسانية وتزكيه التجارب البشرية ... من الأصول القارة التى جعلناها ـ إلى جانب تمسكنا بأصالتنا والذود عن مقوماتنا وطرافة شخصيتنا ـ شرطا أساسيا للخروج من هوة التخلف التى تردت فيها شعوب العالم الثالث ، ومدخلا ضروريا الى التعاون الخلاق بين كافة الافراد والامم وبالتالى تحقيق إنسانية الانسان .

على أن هذا التفتح لا يمكن ان يكون فى آتجاه واحد ، تتمسك به وتسعى إليه الشعوب المتخلفة ، من باب « فى بيته يؤتى الحكم » ! ، بينما تواصل قافلة الدول المصنعة التى حققت ثورتها العلمية والتكنولوجية سيرها الحثيث غير مكترثة بمصير ثلثي البشرية التعيس بل معتبرة إياهم سوقا رابحة لبيع منتوجاتها وما بار من أسلحتها وعتادها الحربى الرهيب !

ولئن أمكن تعليل هذه الظاهرة الخطيرة بمنطق الكسب المالى والرأسمالى أو حركية التوسع الايديولوجى الممهدة بدورها الى الامبريالية الاقتصادية والهيمنة السياسية ، فان لرواسب التاريخ واتجاهات المذاهب التربوية ومحتويات برامجها دورا تكمن خطورته بالضبط فى ضعف الشعور بهذه السلبيات والرغبة عن معالجتها واستئصال جذورها .

وكم قدرنا حق قدرها المجهودات الكبيرة التى لا تزال منظمة اليونسكو تبذلها كى تحمل المسؤولين عن التربية والثقافة والمربين عامة على مراجعة برامج التاريخ لتطهيرها مما تورثه فى نفوس الاجيال الصاعدة من تعصب وكراهية وحقد ومركبات آستعلاء وغرور ، والتعريف بما ابتكرته مختلف الحضارات فى شتى العصور من روائع الفكر والادب وساهمت به فى تقدم العلوم والفنون ، وكم اعجبنا بالنداءات الصادرة فى هذا المعنى عن ثلة من

كبار العلماء والمفكرين بالعالم المتقدم الذين يؤكدون على وجوب التقدير المتبادل لقيم الشرق والغرب ونشر كافة اللغات الحية والكشف عن عبقرياتها الذاتية ، إذ الحروب والشحناء ونزعة التفوق والسيطرة كامنة فى عقلية البشر ونابعة من جهل واحتقار بعضهم لبعض فوجب ان تقاوم فى هذا المستوى أى بواسطة التربية والثقافة أساسا ومن البداية . وفى هذا الاتجاه نبارك الانجاز الكبير الذى حققته منظمة اليونسكو والمتمثل فى نشر « تاريخ الانسانية » فى تسعة مجلدات باشراف نخبة من كبار الاخصائيين الذين تمحضوا للعلم والتحقيق وتنزهوا عن الهوى لابراز جهد الانسان وسعيه مدى الأحقاب .

لذلك لا يسعنا إلا أن ننوه بما نشرته مجلة « التربية » الفرنسية الشبيهة بالرسمية فى عددها 132 المؤرخ فى 9 مارس 1972 حول ضرورة تعليم اللغة العربية فى المعاهد الفرنسية تحت عنوان « لماذا لا نتعلم اللغة العربية » .

وجاء فى هذا المقال بالخصوص : إن بعض الارقام أكثر دلالة من الخطب المسهبة . وإذا انصرف أكثر من 75 بالمائة من تلامذة المعاهد الثانوية الرسمية الى درس اللغة الانقليزية فهذا أمر طبيعى لا تحتاج دوافعه الجلية الى مزيد تبسط فى حدود هذا المقال . وكذلك الامر بالنسبة للغة الالمانية التى تأتى فى المرتبة الثانية بل ان اقبال آلاف التلاميذ على اللغتين الاسبانية وحتى الايطالية أمر ندركه لاعتبارات شتى . وأخيرا نجد مبررا لتزايد إقبال التلامذة على اللغة الروسية . لكن الذى يثير تساؤلاتنا هو ألا يتجاوز عدد الذين أقبلوا على درس اللغة العربية بكامل معاهدنا 400 تلميذ ! والحال أنها لغة مائة مليون عربى واللغة الدينية لخمسمائة مليون مسلم ! ثم وجب أن نذكر أنه يوجد بفرنسا 200.000 طفل جزائرى ـ دون التعرض الى غيرهم من الأقوام ـ بلغ 50.000 منهم سن الدراسة الثانوية .

ويلاحظ المقال أن تدريس اللغة العربية موكول أساسا الى مبادرات مديرى المعاهد وطلبات أولياء التلاميذ ، وهنا تكمن المشكلة : « ان اختيار اللغات يقع على أساس المصلحة والسهولة النسبية بحكم التقاليد وكذلك الجهل والافكار القبلية ، مما جعل لغات الغرب محظوظة ! » .

وتذكر المجلة ان عدد أساتذة اللغة العربية بفرنسا لا يتجاوز الثمانية عشر ، عشرة منهم مرسمون وثمانية وقتيون ، وأن المترشحين لمناظرة التبريز لا يتسابقون منذ 1968 الا من أجل منصب واحد فى السنة مما لا يشجع اقبال الطلبة الفرنسيين على دراسة لغة الضاد .

وأعجبتنا صراحة المجلة وشجاعتها وكذلك أريحيتها عندما عبرت عن أسفها الشديد بل استنكارها لهذه الظاهرة ! ودعت الى أن يدرك القوم ان المصلحة تملي عليهم أن يتصلوا بالعالم العربي ويدعموا علاقاتهم الثقافية به و « يوجدوا حوارا مع هذه الحضارة المجيدة التي طالما سطع نجمها في دنيا العلوم والرياضيات والآداب والفلسفة والشعر » وأن ييسروا كذلك الاتصالات التجارية والاقتصادية وأخيرا عبرت المجلة عن تخوفاتها اذا ما آستمر الحال على ما هو عليه من أن تقع المبادلات في المستقبل بين فرنسا والعالم العربي عن طريق اللغة ... الانقليزية » .

وإن نشر هذا المقال في مجلة تربوية شبيهة بالرسمية وتحلية كامل غلافها بصورة من مخطوط عربي ذي خط مغربي جميل ، ليدعونا الى التفاؤل لأننا بقدر ما نؤمن بضرورة التعاون الخلاق بين بلادنا وفرنسا ، وبالحوار الايجابي بينها وبين المغرب العربي خاصة والعالم العربي الاسلامي عامة ، ونؤمن بضرورة تعلم اللغات الاجنبية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية التي نقدر عبقريتها وفضلها على الفكر البشري عامة ، إيمانا منا بضرورة التفتح ومواجهة كذلك للتحدي العلمي والتكنولوجي الذي يفرض اليوم نفسه علينا فرضا ، نعتقد أن نشر لغتنا بفرنسا يساهم في تأليف قلوب شبابها الصاعد نحونا ويهيئه الى التفتح على العالم العربي وييسر الحوار الايجابي بين شعوبنا ويمهد الى الصداقة الحق المبرأة من شوائب الهيمنة والعنصرية مهما كان مصدرهما – هنا أو هناك – ويجعل من فرنسا أمة عظيمة في قلوب الشعوب وخاصة منها شعوب البحر المتوسط .

وما دمنا متمسكين فعلا بالتعاون الثقافي الا يمكن أن نتصور يوما يتم فيه انتداب ثلة من أساتذة المغرب الكبير للتدريس بمعاهد فرنسا على غرار ما هو موجود الآن بالنسبة للأساتذة الفرنسيين بربوعنا ؟ إن مقال « التربية » يؤكد – في نظرنا – عزيمة المسؤولين على تلافي منزلة اللغة العربية « المتواضعة » في المعاهد الفرنسية ويبشر بيوم قريب تصبح فيه عبارة « التعاون » تدل على معنى المشاركة والتبادل في أسمى وأخصب معانيهما .

ولن نزال بحول الله نعمل من أجل الصداقة الحق والثقافة الحق والسلم الحق ، الى جانب اخواننا وزملائنا الاحرار حيثما كانوا ، في الضفة الشمالية أو الجنوبية لهذا البحر المتوسط ، مهد الحضارات ومنبع القيم العليا الخالدة !

محمد مزالي

من ديوان (نسر ونصر)

ذكرى 9 افريل

يوم شهداء تونس

شعر : منور صمادح

تخذ السطور إلى الفضائل سلما
وأقمه حفلا هازجا مترنما
يا شعر ناضل ، أنت من صنع الوفآ
وأضاء فى ليل المحب الأنجما
وأثار قلب الليل فانتفض الدجى
وأنار دربا كان قبل معتما
فتحت صدرك للحياة مغنيا
وفم الحياة بما تشاء تكلما
نزهت عن خطل العقول .. ولم تزل
قلب الحياة وروحها المتجسما ...
يا هادلا ألقى الجناح إلى الضيآ
وامتاح من فيض الجمال وألهما
رجع لحونك فالازاهر صبة
والروض فى ظما لشدوك مثلما ...
واخفق باجنحة السلام على الورى
واجعل جراحك للأحبة بلسما ...
عش للوفاء مقدسا ، عش للمحبة
مرضعا واشرح غرامك حيثما ...
لا تعرف الارض الحضيض ، ترفعا ،
منعت رحابك أن تسام وتهضما
ولقد يظن اذا بدت فى بحرها
أن النجوم نزلن من فلك السمآ
نثرت لانظمها قلادة شاعر
عشق الخلود ولن يزال متيما

أفريل يشهد للذين استشهدوا
فسل السجون لو الحديد تكلما
هي قصة الأمجاد يكتبها الأباة
الذائدون عن الكرامة والحمى
(حشاد) و (الهادى) (1) وكل مغاضب
لبى النداء وهب فيهم ضيغما
« لامبيز! » (2) هل ما زلت تذكرهم وهل
عذب العذاب ؟ وكيف ليلك أظلما ؟
إفتح ضلوعك للضياء وخلها
من فجرنا تشرب وتروى من ظمآ
خلدت برج (البوف) ! ته متفاخرا
واصل حوارك بالعظائم مفحما
حدث عن الصبر الجميل وصف لنا
شوق الحياة وعزمها المتقحما
وانشر على الصحراء فضل رجالها
واخلد على الايام فيها معلما

* * *

يا راحلين تلفتوا ، يا نائمين استيقظوا
فلقد قضى ليل عليكم أدلما
واستقبلوا الاحلام تهزج صبة
قوموا انظروا كيف الخيال تجسما
في ظل رايتنا المفدى عزها
بعروقكم نسجت .. وفاحت بالدمآ
في كل خيط شد عزم ظافر
والنجم أشرق والهلال تبسما

* * *

يا يوم عدت عليك تاج فخارنا
يا منحة الشهداء يا شرف الحمى
أنت الوفاء لراحلين أحبة
صنعوك للشعب الوفي تكرما

أيام كان الموت يخلق أمة
ويذيق صانعه الكؤوس العلقما
يا شعر فح أرجا على إصباحه
وكن اللسان معبرا ومترجما
صف مجدنا واهتف ليوم جهادنا
وصف النضال وليله المتجهما
لا زال حزب الشعب يفلح سعيه
من كل شهم بالمبادىء أقسما
ومضى إلى الامل العظيم ممزقا
حجب الضلالة مرشدا ومعلما
يبنى الحياة كما يريد لها العلى
ويشد من عزم الحياة مرمما
لا زال يلهمها القلوب فتهتدى
ويلم عقدا كان قبل تخرما

م٠ ص٠

---

(1) فرحات حشاد والهادى شاكر ٠

(2) لامبيز سجن فى الجزائر كان يعذب فيه الثوار التونسيون والمكافحون المغاربة ٠

مطالعات

اللغة العربية ومشاكل الكتابة

تأليف : البشير بن سلامة
تعليق : عبد الكريم غلاب

حينما بدأت حملة المثقفين التونسيين من أجل اللغة العربية عموما ومن أجل تعريب التعليم على الاخص اعتبرناها انتصارا كبيرا لفكرة تدعيم العربية فى بلاد المغرب العربى لا لأن تونس أقل عروبة ، ولكن لأن الدعوة الى الفرنكوفونية كانت نوعا ما انحرافا عن خط المجاهدة فى دفن رواسب الماضى القريب الذى دعمه الاستعمار الفرنسى ، كما أن الدعوة الى تدعيم ازدواجية اللغة فى المغرب يمثل نفس الانحراف الذى لا يتفق فى شىء مع الانطلاقة التحررية التى يجب أن تأخذ مسيرتها فى المغرب العربى ، ثم لأن تونس هى التى ساهمت بحظ وافر فى تعريب المغرب العربى منذ دخلها الاسلام والعروبة، وقامت جامعاتها ومدنها ورباطاتها بتركيز العربية فى الجزء الغربى من الوطن العربى والاسلامى ، ولذلك فرسالتها الحالية يجب



عبد الكريم غلاب

- تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة .
- عمل فى حركة التحرير الوطنى فكان امينا عاما لمؤتمر المغرب العربى .
- عاد إلى المغرب فاشتغل بالصحافة والأدب ، فرأس تحرير مجلة « رسالة المغرب » وكان عضوا بارزا فى حزب الاستقلال الذى قاد الحركة الاستقلالية بالمغرب .
- أعتقل عدة مرات .
- بعد الاستقلال عاد إلى الصحافة ثم عين وزيرا مفوضا فى وزارة الشؤون الخارجية مدير لقسم الشرق « افريقيا آسيا » .

أن تستمد من رسالتها التاريخية ، لا العزم فحسب ، ولكن النموذج كذلك ٠

ثم حينما أعلنت تونس أنها ستعرب الادارة لم نعتبر ذلك غريبا عن تونس فقد كانت سباقة الى تدعيم العربية فى مدارسها حتى فى عهد الاحتلال منذ الاصلاح الذى أدخله على التعليم الوزير خير الدين فى منتصف القرن الماضى ولذلك لم تكن العربية - رغم تركز اللغة الفرنسية فى التعليم والادارة - بغريبة عن المثقف التونسى ٠

وقد كان من نتيجة حملة المثقفين المساهمة القيمة التى شارك بها الاستاذ البشير بن سلامة فى مجلة « الفكر » والتى انتجت هذا الكتاب الجديد الذى نقدمه للقراء٠

- استقال من وظيفته لينصرف إلى عمله الأدبى والصحفى .
- يعمل الآن مديرا لجريدة «العلم» اليومية وهو عضو فى اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال .
- من كتبه المطبوعة : «الاستقلالية» « فى الاصلاح القروى » « صحفى فى امريكا » « فى الثقافة والادب » « نبضات فكر » « سبعة أبواب » « دفنا الماضى » « دفاع عن الديمقراطية » ، « الارض حبيبتى » و « المعلم على » .
- انتخب فى يولية 1969 رئيسا لاتحاد كتاب المغرب وذلك بعد انهاء المؤتمر الثانى للاتحاد .
- محاضر يشارك بآرائه فى مختلف المجالات .
- يشارك فى مؤتمرات أدبية فى مختلف أنحاء العالم العربى .
- يمتاز بالغزارة فى الانتاج والموضوعية سواء منها الأحداث السياسية أو الثقافية أو الفنية.

عنوان الكتاب فيما يظهر لم يوف بكل الموضوعات التى تناولتها فصوله المتعددة ، فان الكتابة العربية ومشاكلها لم تأخذ من الكتاب الا بابه الاول (خمسة فصول) نحو 62 صفحة) أما بقية الكتاب فقد تناول الخلق الادبى واللغة العربية فى الباب الثانى (خمسة فصول 65 صفحة) وفى الباب الثالث (خمسة فصول 35 صفحة) تناول لغات الشعر : مشكلة الوزن والتفعيلة الخ٠ من ذلك يمكن أن نقول ان الكتاب يفتقد الوحدة الموضوعية الا اذا كان المؤلف يفكر بصورة أوسع فى مشاكل الكتابة سواء منها ما يتصل بالحرف أو بالخلق الادبى أو بالطريقة الفنية للأداء التعبيرى ٠

مهما يكن فان ضعف أواصر الوحدة الموضوعية فى الكتاب لا ينقص من قيمة المجهود الكبير الذى بذله المؤلف فى الموضوعات الثلاث ، مما يجعل هذا الكتاب وصدوره فى تونس على الاخص مساهمة مهمة فى نشر الوعى بتطوير اللغة العربية وبالتفكير الجدى فى مشاكلها ٠

وأهم ما استرعى نظرى فى الباب الاول ـ اعتبره أهم ما فى الكتاب ـ هو اهتداء المؤلف الى الفرق الهائل بين تطور اللغة العربية وتطور الكتابة فقد تطورت اللغة بشكل هائل قبل الاسلام ، وقفز بها القرآن قفزة هائلة بحيث أصبحت لغة مكتملة ، ولكن نقصها الاكبر هو أنها كانت تخضع لما سماه المؤلف : « **سلطان الذاكرة** » بحيث كان أدبهم ـ وهو أسمى ما خلد اللغة العربية من عمل فنى قبل الاسلام ـ شعرا ، « وكان موزونا مقفى ليخضع لسلطان الذاكرة ويستغلها فى المحافظة على كيانه ٠

وجاءت الكتابة لا لتلبى حاجة أو ضرورة فكرية ، فقد كانت الذاكرة تلبى هذه الضرورة،ولكن لتقوم بدور كمالى لميكونوا يشعرون به وقد اقتبسوها من النبطية المتفرعة عن الآرامية ٠ فهى اذن : « أمر ثانوى ، ولهذا بقيت مجرد حروف خالية من الاعجام أى النقط ، خالية من الحركات ، رديئة التصوير ، بحيث كانت رموزا يعسر حلها ٠ اذ هى بعيدة كل البعد عن أن تكون صورة صادقة لما بلغته اللغة العربية من ضبط فى الاعراب وتوازن فى النبرة الموسيقية ٠ فكان اذن تفاوت بين هذه اللغة الخاضعة « لسلطان الذاكرة » وبين هذه الكتابة البدائية المنقوصة ٠ وكانت هوة فاصلة بين أدب هؤلاء وبين كتابتهم » (ص 39) ٠

وقد حاول المؤلف محاولة جادة فى أن يستنتج أن القرآن حاول أن يحرر اللغة العربية من سلطان الذاكرة سواء بالاسلوب الذى نزل به ، ولم يكن شعرا على كل حال ، أو باستعمال الامر بالقراءة الى جانب الامر بالتلاوة ، مما يجعل الرسالة ليست شفوية فحسب ، ولكنها كتابية أيضا ، ثم التشجيع الذى بذله النبى والخلفاء من بعده فى تسجيل القرآن وكتابته فى العظام وسعف النخل ٠

وقد تتبع المؤلف ظاهرة الكتابة المنقوصة وأثرها على اللغة حتى وصل سريعا الى عصر الطباعة ٠ ومع ذلك « فان التعثر الذى نال العربية فى خطواتها الاولى عندما عرف أهلها الطباعة يكاد يكون هو نفسه الذى عرفه العرب عندما رأوا أن الحاجة ماسة الى الكتابة ، فكما أنهم استقروا فى آخر الامر وفى عصورهم الاولى على كتابة منقوصة ، وقبعوا تحت تأثير « سلطان الذاكرة » فهم اختاروا كذلك ، بعد تلكؤ ، وعن عدم وعى بخطورة المسألة ، حروفا طباعية منقوصة أى حروفا خالية من الشكل » (ص 55) ٠

بهذا الوضع يضع المؤلف المشكلة فى اطارها الواقعى بعد أن وضعها فى اطارها التاريخى • ويستخلص من كل ذلك : « انى أومن بأنه لا يمكن أن تزدهر اللغة العربية وتكون لغة حياة الا اذا دخلت عصر الطباعة بالفعل أى مكنت قراءها من أن تكون لهم كتابة كاملة مشكولة تماما لا اشكال فيها » (ص 68) •

وبذلك وضع المؤلف المشكلة فى وضعها الحقيقى وهو أن تطور الكتابة لا يعنى تطور الاداة وتسهيلها فحسب ، ولكنه تطور للغة نفسها وازدهار لها وحياة • وتلك نتيجة هامة لا يمكن الا أن نوافق عليها موافقة كاملة •

كان من الطبيعى أن يكون كل هذا البحث مقدمة للحل الذى يقترحه المؤلف للمشكلة • وهذا ما قام به فى الفصلين الرابع والخامس • كان الفصل الرابع استعراضا للحلول التى اقترحت من قبل ، ومنها الحل السلبى الذى اقترحه عبد العزيز فهمى فى مصر وهو استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية• ثم الحلول الجادة التى قدمها محمود تيمور ومجمع اللغة العربية فى القاهرة ، ونصرى خطار وأحمد الأخضر ومروة • وقد اعترض على هذه الطرق جميعها ليصل الى الحل الذى يقترحه •

ولفت نظرى الملاحظة التى أخذها على الاستاذ الأخضر بعد أن استعرض استعراضا سريعا طريقته التى اختصرت ملامس الآلات الطابعة الى تسعين ملمسا مع شكل الحروف بالشكل الكامل ، الملاحظة التى أخذها على الأخضر فى طريقته المعيارية هى ما جاء فى قوله : « وليس من شك فى أن هذا المجهود قد أعان على تيسير الطباعة العربية ، إلا أنه لا يخفى على القارىء الكريم أن هذه الحروف لا تحافظ على جمال الحرف العربى وأن الاستاذ الأخضر وان توصل الى ضمان سرعة العمل واختصار الوقت بالنسبة للمطبعة فانه لم ينتبه الى أن كثرة الروابط بين الحروف وخاصة منها فى النص المشكول يعد خسارة من الناحية المادية تتمثل فى مضاعفة كمية الورق » (ص 78) •

وأعتقد أنهما ملاحظتان تافهتان اذا تأكد المؤلف من أهمية الطريقة الجديدة التى اقترحها الأخضر • فجمال الشكل يمكن أن نصل اليه عن طريق التجميل الفنى وهى مهمة الخطاط لا مهمة مبتدع الخط أو الطريقة • أما كثرة الروابط فهى التى تتيح الشكل ، ومع ذلك يمكن البحث عن طريقة لاختصار بعضها •

وينتهى الاستاذ ابن سلامة من هذا الاستعراض الى الطريقة التى اعتمدها

كحل جذري لمشكلة الكتابة وهي التي سماها « الكتابة النموذجية » وتعتمد على فصل الحروف حتى تكون صالحة ــ في الأغلب ــ لكل الأوضاع (أول الكلمة ووسطها وآخرها) الا الحروف المعرقة مثل : ج · ح · خ · م · ع · غ · ض · ص · ش · ق · ن · ى · الخ · فهي تصلح في الآخر ولا تصلح في أول الكلمة أو وسطها · وقد أصبح عدد الحروف بذلك 58 حرفا تضاف اليها الروابط بين الحروف وعليها حركات فتصبح ملامس آلات الطباعة 91 حرفا ·

واذا كنت أشد عن يد الصديق البشير بن سلامة لهذا الاتجاه في اختصار الكتابة العربية وضبطها واتفق معه في مزايا هذه الطريقة ، فاني لم أجد كبير فرق بين طريقته وطريقة الاستاذ أحمد الأخضر ، وهما معا ينتهيان الى نتيجة واحدة (طريقة الأخضر 90 حرفا ، وطريقة ابن سلامة 91 حرفا) ·

المهم من كل هذا أن تتضافر الطريقتان معا في ايجاد الكتابة العربية المطبوعة المشكولة التي لا تكلف كثيرا من الوقت ولا تعقد الطباعة والتي يمكن أن تتبناها مختلف الأقطار العربية ·

بعد الباب الاول الذي أعتبره ألصق بعنوان الكتاب نجد الباب الثاني عن « الخلق الأدبي واللغة العربية » ورغم أنني أجد الصلة ضعيفة بين هذا الموضوع وموضوع الباب الاول فان المؤلف يصر على أن « هذا الباب مرتبط أشد الارتباط بما قبله ، ذلك أن الكتابة العربية مشدودة الى نمط من التفكير ونوع من التصور للحياة ، واذا كانت الكتابة المنقوصة لها ذلك التأثير على مختلف مناحي نشاط أهل العربية فتأثيرها على الخلق أشد ، أي على اللغة التي هي مادة الخلق » ·

لا أتفق مع هذا المنطق اطلاقا لأنه غير موصل الا اذا اعتبرنا أن كل مشكلة لغوية تؤثر على الخلق الأدبي · وبهذا المنطق يمكن أن نقول : « ان اللغات التي لا تصادف في طريقها مشكلة كمشكلة الكتابة تكون طريق الخلق مفتوحة في وجه أبنائها ·

ثم ان الافكار التي وردت في هذا الباب مليئة عندي بعلامات الاستفهام · وأولها موضوع الفصل الاول وعنوانه : « أزمة الخلق الأدبي أزمة لغة » فبعد أن أشار الى مظاهر أزمة الخلق الأدبي في المغرب العربي انتهى الى القول بأنها أزمة لغة · ثم سرعان ما يتخلى عن هذه « الحقيقة » ليفسرها بأن « الازمة هي

فى الحقيقة أزمة فهم ووعى للغتنا من حيث هى تعبيــر أى من حيث هى أداة للخلق الأدبى » • واذا كنت قد وعيت هذا الفصل وعيا كاملا فانى أجد فى الآراء الكثيرة التى تضمنها اضطرابا • ولذلك لم أستطع أن أتأكد ما اذا كان المؤلف يجعل الأزمة أزمة لغة أو أزمة أسلوب وعروض وموسيقى شعرية أو أزمة فكر الخ الا اذا كان ذلك يدخل فى مفهوم اللغــة • وهــذا مــا لا أتفــق معه فيه •

لا أستطيع فى هذا التعليق أن أتتبع فصول الكتاب الاخرى ولكنى أعتبر من أجودها الفصل الثالث فى الباب الثانى وهو « الأسلوب واللغة التجاوز » وهو يتناول الصراع بين الفكرة واللغة والأسلوب عند الكــاتب الخــلاق • وهو فصل جيد لا يغنى فيه تلخيص عن قراءة •

والكتاب بعد هذا غنى بالنظريات والأفكار اللغوية والأدبيــة والتــاريخية يهنأ عليها الاستاذ ابن سلامة • واذا كانت لى من ملاحظة فهى أنه لا يخضع لمنهج مدقق • وقد كتبه المؤلف فصولا موزعة كما يؤكد ذلك فى المقــدمة • ولذلك فحينما أراد أن يخرجه فى كتاب متكامل كان ينبغى أن يستغنى عن الكثير مما ليست له صلة بالموضوع ولو أنه مهم فى حد ذاته •

ملاحظة أخــرى ــ قد لا تخص الأخ ابن سلامة ولا تخص هــذا الكتــاب بالذات ، وهى أنه يعتمد فى كثير من المعلومات عن اللغــة العربية ومشاكلها وتاريخ جزئياتها على مصادر أجنبية ، وهى موجودة فى مصادر عربية عليها أعتمد الأجانب • مثلا بداية الاعجام أو الحركات فى العربية موضوع مطروق فى كثير من الكتب العربية • ولكنه يعتمد فيه على دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية • تاريخ القرآن وجمعه وتدوينه كتب فيــه الكثيــرون أشهــرهم السيوطى فى الاتقان ، ولكنه يعتمد فى الموضوع على بلاشير فى كتابه عن القــرآن •

ولا يفوتنى أن أنبه الى بعض الأخطاء المطبعية (حتى فى النصوص القرآنية : ان علينا جمعه وقرآنه : ص 48) واللغوية كالاصداع مع أن الفعل ثلاثى • وتظافر تكررت الكلمة كثيرا فى الكتاب مكتــوبة بالظــاء مع أنهــا بالضــاد كالضفيرة لا كالظفر •

بقيت ملاحظة عامة فى بعض التعابير اختار من بينها استعمال فعل « وقع »

كفعل مساعد مع أن العربية لا تحتاج الى فعل مساعد كما يوجد فى الفرنسية أو الانجليزية مثلا • وهكذا وردت مثل هذه الجمل : وقعت تجربته ، وقع بتره ، وقع تداركه ، وقع النظر فيه ، يقع احضار تونسيين ، وقع استعماله ، وقع تركيز ، وقعت استعارته • يمكن فى هذه الجمل التعبير بالفعل مباشرة ابتعادا من التعقيد فتقول : جرب ، بتر ، استعير ، أحضر ، استعمل ، نظر فيه الخ وهذه الظاهرة ليست خاصة بالاستاذ ابن سلامة بل انها عامة فى كتابة المثقفين التونسيين الذين يستعملون الفعل المساعد للفعل الذى يؤدى المعنى بنفسه سواء بنى للفاعل أو للمجهول • ولاحظتها فى اللهجة العامية التونسية ، وهى من أصفى اللهجات العربية • ولست أدرى هل آنتقل هذا التعبير من العامية الى الفصحى أم من الفصحى الى العامية ؟•

بعد هذه الملاحظات ـ وبعضها جانبى ـ أهنىء الاخ البشير بن سلامة على كتابه القيم الذى يعتبر دفاعا مجيدا عن اللغة العربية فى المغرب العربى وأرجو له مزيدا من التوفيق فى هذه الابحاث القيمة التى توجه الشباب والدارسين الى مشاكل لغتنا والتى تسهم فى حل هذه المشاكل تمهيدا لتعميم الثقافة ونشر المعرفة بين الناطقين بالعربية ودفعا للغزو الفكرى الذى يعتمد على منفذ مهم هو ما يزعمه من قصور اللغة العربية وصعوبة دراستها •

عبد الكريم غلاب

تعليــق :

هل الفكر وليد اللغة ام اللغة وليدة الفكر ؟!

لقد التقيت بالاستاذ عبد الكريم غلاب فى مناسبات عديدة والتأم بيننا حوار بناء كان يفضى تارة الى الاختلاف وطورا الى الاتفاق التام وخاصة فى القضايا المصيرية • وعندما خضنا أثناء مؤتمر أدباء المغرب العربى بطرابلس سنة 1968 فى مشاكل اللغة العربية أبدى إهتماما كبيرا واتفق معى فى النتائج والحلول ولكننا اختلفنا فى طريقة التحليل ونقطة الانطلاق •

وها هو يواصل عنايته بآرائى ويهتم بكتاب « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » ويخصه بهذا النقد اللطيف الذى مكننى من أن أوضح بعض النقاط الهامة مما لم أتوفق اليه عند تقديم الكتاب للنشر · ولا يسعنى إلا أن أشكر الاخ الاستاذ على عنايته وأهنئه بصائب آرائه ولطيف تحليله ·

وأحببت ألا أناقش الاخ الاستاذ فى جميع ما عرضه من آراء وقصرت هذا التعليق على نقطتين هامتين الاولى هى صلب القضية ومدار النقاش وأصل الاختلاف على ما أظن وهى تتعلق بمشكل وإن ظهر بسيطا من قبيل البديهيات فهو سبب الالتباس والثانية لا تتعدى الفنيات والشكليات ·

فالنقطة الاولى التى جعلت الاخ الاستاذ الكريم يبنى عليها استنتاجات لا أوافق عليها هى الجواب عن سؤال له أهميته ولم يقل العلم كلمته فيه وهو : هل أن الفكر وليد الكلام أم الكلام وليد الفكر ؟ وسأحاول الاجابة عن هذا السؤال لأنه فى الواقع مفتاح الكتاب بأكمله وان كنت قد أجبت عنه ضمن أبواب الكتاب وفصوله من دون تحليل ولا تعليق مستفيض ·

إن العلم بقى حائرا بين أمرين أو بين موقفين متضادين : بين من يجزم أن الفكر وليد الكلام ومن يقول بأن الكلام وليد الفكر · وقد عبر عن النظرية الاولى بكل وضوح الفيلسوف الفرنسى مرلو بونتى (Merleau-Ponty) عندما قال :

« إن فكرة تكتفى بأن توجد لحد ذاتها ، خارجة عن مورثات الكلام والابلاغ مآلها اللاوعى بمجرد ظهورها وهذا يعنى أنها غير موجودة فى حد ذاتها » (1) · والنتيجة الحتمية لهذه النظرية هو أن الفكر لا يبرز ولا يتضح للعيان الا بالاستناد الى الكلام ويبقى الفكر ظلا له ·

أما النظرية الثانية فأبرز من ناصرها وأيدها العالم « أنشتين » عندما كتب قائلا :

« لا أظن أن الكلمات سواء كانت مكتوبة أو منطوقة تقوم بأى دور مهما كان

---

(1) Maurice Merleau-Ponty, la Phénoménologie de la perception Paris. Gallimard, 1945.

فى كيفية سير فكرى الذى يعتمد على صور تختلف درجة وضوحها وهى من صنف مرئى واحيانا عضلى » ٠

وواضح هنا أن الفيلسوف الفرنسى تغلب عليه العقلية الادبية بينما تسيطر على « أنشتاين » العقلية العلمية ٠ فالاول يعتمد على اللغة وهياكلها ليستخرج منها الفكرة فيظهر الفكر ظلا للغة بل ان الكلام هو الذى يشحذه والتعبير يثريه ويخصبه ثم تأتى الكتابة لتجلوه وتعمقه ٠ أما الثانى فيتحاشى الاعتماد على الكلام ليوجه فكره وجهة مغايرة ويكرع من طاقات ومنابع أخرى يكون التعبير مهما كان بالكلام أو غيره منتهى له ومترجما عن غزارة الفكر وخصبه ٠

وبطبيعة الحال فان بين هاتين النظرتين أو العقليتين أصنافا متعددة تختلف باختلاف الوسط والطاقات ٠ وليس هناك عقلية أدبية بحتة ولا علمية بحتة بل نجد ظلالا وأصباغا متنوعة ٠ على كل فان هذه المقدمة وان ظهرت بديهية وبقيت علميا غير قابلة للتحقق والتجربة فهى تدعو الى دخول باب الافتراض ٠

ذلك أن الفكر وهى الملكة الطبيعية فى البشر لا يبرز ولا يتضح إلا فيما يؤثر به الانسان على نفسه وعلى من حوله وما حوله : بالكلام وبالقدرة على صنع الاشياء وتفكيكها ٠ فالفكر هو هذه الطاقة الكامنة فى دماغ الانسان يكيفها ويوجهها بالتمرين والدربة الى حيث يريد ٠ كطاقة بدن الانسان فى الحركة والقوة فهى لا تظهر إلا فى مفعولها ومفعولها لا تحدد نوعيته إلا بالصورة التى تمرن بها بدن الانسان ٠ وهذا واضح فى الرياضة بأنواعها ٠ فالذى تمرن على رفع الاثقال وجه هذه القوة الكامنة فيه وجهة معينة وكذلك قاطع المسافات وغيره ٠ كذلك الفكر البشرى لا يمكن أن يكون فى حد ذاته محمولا على نوع خاص من التفكير بل إن طاقاته تتلون بحسب ما يمرن عليه ٠ فان هو اعتمد على الكلمات ينحت منها تعبيره ويفجر منها آيات بيانه عدت هى مصدر فكره والفكر ظلا لها وان ركز همته على الالوان والاشكال أصبح عالم الكلمات ضئيلا وظن أن هذه الالوان وهذه الاشكال هى المثير لفكره والحافز لها وهكذا بالنسبة لجميع ملكات البشر ٠

ولهذا فالفكر البشرى طاقة يوجهها الانسان حسب الوجهة التى يريدها فهو مصدر كل شيء كنور الحياة فى البشر ٠ غير أن الالتباس الكبير

الذى يجب رفعه هو أن الكلام وهو القاسم المشترك بين جميع البشر والظاهرة الحياتية التى تميز بها منذ سحيق الدهور تحول عند النخبة الى تعبير خاص فى قالب الشعر فى أول الامر ثم سما الى النثر عند ظهور الخط وانقلب مسيطرا حاكما بأمره عند بروز الطباعة • فالكتابة أعنى كل خلق فى نطاق الكلمات وما يتجسم عنه من خط وحروف اتجهت بحكم نشأتها وجهتها المعينة وهى الارتكاز على اللغة والكرع منها حتى أصبحت تظهر وكأن الفكر وليد لها• وهى كسب للبشرية لا يمكن التخلى عنه وقد طغت فى بعض الاحيان على أنواع التعبير الاخرى وانغلقت على نفسها وعاشت فى بوتقة ضيقة وأصبحت حاجزا بين الانسان والواقع • وهذا لا يعنى أن هذه الوجهة قد تجاوزها الزمن أو هذا الضرب من التعبير قد أفلس لظهور طاقات تعبيرية أخرى بل ان مجهودا يجب أن يبذل فى الوجهة المعينة بدون أن يخرج عن نوعية التعبير الخاصة به فكما أن الرسام مثلا لا يخرج من عالم الالوان والأشكال كذلك الكاتب يجب عليه ان لا يضل الطريق ويخرج من عالم اللغة المسيطر ويلتبس عليه نوع آخر من اللغة هو تعبير آخر لطاقات أخرى فى الفكر مثل لغة العالم الذى يشرح بها اكتشافاته وليست هى مادة خلقه ولا المنبع المفجر لملكته الخلاقة •

وأكبر خطا هو تحويل الكتابة فى معناها الشامل ـ خلقا للغة وخطا وحروفا ـ من أصلها ووجهتها النوعية الى طريق آخر يتصل بنوع آخر من التعبير أى الخروج بالكتابة التى تستعمل اللغة أداة وغاية فى آن واحد الى لغة أداة فقط صالحة للعلم وأبواب أخرى من المعرفة كالكلام العادى • ولعل أعظم صعوبة تلاقيها فى ميدان التعليم البلدان القديمة حضاريا التى عرفت اللغة الأداة الغاية وسيطرت عليها وأصبحت حاجزا بينها وبين الواقع ولم يعرف أهلها كيف يتجاوزون بها الحدود التى وصلت اليها هو اختلاط السبل فى أنواع التعبير سواء فى نطاق الازدواجية أو فى رد الفعل والطفرة بالانتقال من نوع من التعبير الى نوع آخر فتحصل الذبذبة وينشأ جيل لا يعبر عن شىء تعبيرا نوعيا متكاملا •

وبعد هذا اسمح لى أيها الاخ الاستاذ فى نطاق ما حددته فى هذه المقدمة من معنى للكتابة التى تستعمل اللغة أداة وغاية ، وهو مفهوم أشرت اليه فى الكتاب ، أن أتناول بالرد بعض النقاط الواردة فى التعليق •

فقد نبهتم الى « أنه يمكن أن نقول ان الكتاب يفتقد الوحدة الموضوعية ، إلا اذا كان المؤلف يفكر بصورة أوسع فى مشاكل الكتابة سواء منها ما يتصل بالحرف أو بالخلق الادبى أو بالطريقة الفنية للأداء التعبيرى » وهو بالضبط ما

أقصده لأن عالم الكتابة مترابط الجوانب بخطه وحروفه وعباراته وتعابيره فهو متصل بعضه ببعض إن إختل جزء إختل الآخر • لهذا فانه عندما يختل الخط أو ينحرف فان أجزاء أخرى من اللغة تختل ويلحقها الضيم وهذا لا يعنى أن لا يتطور الخط مع تطور الاجزاء الاخرى من اللغة كالتعبير وغيرها • وان ما لحق الخط العربى من تطور طيلة القرون والقرون إنما تماشى مع تطور اللغة التى هى جزء من الحضارة متكامل مع الطاقـات الخـلاقة الاخـرى للفكـر العـربى الاسلامى •

والنقطة الثانية هى لصيقة بما سبق اذ يعلق الاستاذ الكريم على ما قلته : « إن الكتابة العربية مشدودة الى نمط من التفكير ونوع من التصور للحياة ، واذا كانت الكتابة المنقوصة لها ذلك التأثير على مختلف منـاحى نشاط أهل العربية فتأثيرها على الخلق أشد أى على اللغة التى هى مادة الخلق » ويقول : « لا أتفق مع هذا المنطق إطلاقا لأنه غير موصل الا اذا اعتبرنا أن كل مشكلة لغوية تؤثر على الخلق الادبى وبهذا المنطق يمكن أن نقول : إن اللغات التى لا تصادف فى طريقها مشكلة كمشكلة الكتابة تكون طريق الخلق مفتوحة فى وجه أبنائهـا » •

وإنى لا أشاطر الاخ الاستاذ فى نعت المشكـل بمشكلة لغوية إذ يحد ذلك من المعنى الذى أردته والفرق بين عبارة مشكل لغة وعبـارة مشكلـة لغـوية كبير جدا الاولى القصد منها الكتابة أو اللغة الأداة الغاية والثانية جزئية من الجزئيات يمكن أن لا تعتبرها لغة من اللغات والحال أن الاستاذ عبد الكـريم قال فى أول تعليقه : « وبذلك وضع المؤلف المشكلة فى وضعها الحقيقى وهو أن تطور الكتابة لا يعنى تطور الأداة وتسهيلها فحسب ولكنـه تطـور للغة نفسها وازدهار لها وحياة وتلك نتيجة هامة لا يمكن الا أن نوافق عليها موافقة تامة » وانا أعتقد مثله أن العلاقة متينة بين الكتابة كخط وحروف والكتابة كخلق وإبداع • وإلا لأى شىء يعزى اختلاف اللغات وتنوع خطوطها • وعلى كل فانى سأقيم الدليل ان سمحت لى الفرصة بالتجربة العلمية على أن النص العربى غير المشكول يفرز نوعا من التعبير أى من التفكير منقوصا •

ويخص الاستاذ عبد الكريم غلاب الفصل الاول من الباب الثانى « أزمة الخلق الادبى أزمة لغة » بهذا التعليق : « واذا كنت قد وعيت هذا الفصل وعيا كاملا فانى أجد فى الآراء الكثيرة التى تضمنها اضطرابا • ولذلك لم أستطع أن أ تأكد ما اذا كان المؤلف يجعل الأزمة أزمة لغة أو أزمة أسلوب وعروض وموسيقى شعرية أو أزمة فكر الخ إلا اذا كان ذلك يدخل فى مفهوم اللغة • وهذا ما لا أتفق معه فيه » •

أظن أنني على ضوء ما قدمته في ما يخص العلاقة بين الفكر واللغة لا أحتاج الى زيادة بيان على أني ألاحظ انني لم أستعمل أبدا كلمة أزمة فكر لان ذلك لا معنى له عندي بالنسبة لميدان الكتابة ٠ لان هذا الميدان أداته كما قلت وغايته اللغة فيمكن أن يكون الفكر قد فجر في ميادين أخرى طاقته مثل ميادين العلم والفن والسياسة والاقتصاد أي جوانب الحضارة كلها وأوضحها بالكلام ولكن تبقى الكتابة في معناها الشامل وجانب منها أي الخلق الادبي بما فيه من عروض وموسيقى شعرية وأساليب وإيقاعات وهياكل وتراكيب مشكل لغة أي أن يكون الكلام المتجمع عن نشاط الفكر يقصد لذاته ويكرع من نفسه ليتجاوز نفسه ويصبح في انظاهر وليدا للفكر كما ذكرت من قبل ٠ ولهذا فاني لن أقول بالنسبة لازمة الكتابة أنها أزمة فكر أو أزمة حضارة لأني أعرف وحضرة الاستاذ يعرف أن كثيرا من المفكرين العرب الذين لا يمكن أن نتهمهم ببعدهم عن السمو الفكري أو جهلهم لحضارة العصر ولكنهم رغم ذلك لم يقدروا على تطويع لغتهم العربية الى ما كسبوه من نعم الحضارة ومتفجرات الفكر وهربوا الى لغات أخرى جاهزة ٠ ولهذا أتمسك بالقول بأن مشكل الكتابة هو مشكل لغة بمعناها الواسع والنوعي وأن ما جمعته في الكتاب في صلب الموضـوع وأكثر من ذلك فاني أتأسف لتعذر اضافة فصـل آخـر كتبتـه عن القصـة التونسية وكان في ذلك الوقت غير جاهز ٠

ثم إن هناك ملاحظة أخرى قدمها الاستاذ عبد الكـريم غـلاب مرتبطة بما ذكرته وهي الاعتماد « في كثير من المعلومات عن اللغة العـربية ومشاكلهـا وتاريخ جزئياتها على مصادر أجنبية وهي موجودة في مصادر عربية عليها اعتمد الاجانب ٠٠٠ الخ » ٠ وان هذه الملاحظة تستحق كل عناية بالـرغم أنني لم اقتصر على كتب الاجانب ٠ ذلك أن الكتب القديمة العربية هامة ما في ذلك شك ولكنها تحتاج الى وقت طويل خاصة اذا كانت في طبعات عتيقة ثم انه لو فرضنا ان الوقت وجد والطبعة جددت وحققت فانه يبقى أمر له أهميتـه وهو أن هذه الكتب لتكون مفيدة ورائجة يجب ان تكتب في لغة اخرى جديدة متطورة وهو ما نجده بالضبط عند الكتاب الاجـانب وان اختلفنـا معهـم في الاستنتاجات ، ولكنهم بطريقتهم العصرية ومنهاجهم العلمي الحديث قادرون على عرض الافكار والآراء والمعلومات القديمة في ثوب مستساغ ٠ ولهذا فان الكتب القديمة العربية في التاريخ وخاصة في الفلسفـة تحتـاج الى كتـابة جديدة ٠ وهذا ما لاحظته بالنسبة لكتاب منهاج البلغاء وسراج الادباء لحـازم القرطاجني عندما قلت (ص 175 من الكتاب) : « لهذا أعتقد أن المنهاج منجم يحتاج الى أعمال كثيرة أولا : توضيح استنتاجات حازم بلغة عصرية ، ثانيا :

المضى الى اقصى حد معه فى ملاحظاته وبذلك تنكشف أسرار عديدة لا تزال تحيط بلغة الشعر العربى » • وهذا العمل يمكن ان يقوم بـه البـاحثون والاساتذة الجامعيون حتى ينقلوا الى اللغة العربية العصرية تراثا له أهميته •

بقيت الملاحظات الفنية والشكلية التى اشار اليها الاستاذ المعلق وهو محق فى اكثرها منها أخطاء الرسم وبعض التعـابير التـونسية التى درجنـا على استعمالها من دون سابق مراجعة •

على أني أريد أن أتوقف شيئا ما عند الملاحظات الفنية التى تخص نقـدى لطريقة الاستاذ أحمد الاخضر • وانا اذا أقدر العمل الجليل الذى قـام بـه الاستاذ والخطوة الكبيرة التى خطاها فى سبيل تيسير الكتابة العربية فان هذا لا يمنعنى من التوجه بالنقد الى طريقته والتمسك بذلك اذ قلت : « وليس من شك فى أن هذا المجهود قد أعان على تيسير الطباعة العربية الا أنه لا يخفى على القارىء الكريم أن هذه الحروف لا تحافظ على جمال الحـرف العـربى وأن الاستاذ الاخضر وان توصل الى ضمان سرعة العمل واختصار الوقت بالنسبة للمطبعة فانه لم ينتبه الى أن كثرة الروابط بين الحروف وخاصة منها فى النص المشكول يعد خسارة من الناحية المادية تتمثل فى مضاعفة كمية الورق » •

وقد علق الاستاذ عبد الكريم غلاب على هاتين الملاحظتين بأنهما «تافهتان» وان « جمال الشكل يمكن أن تصل اليه عن طريق الجمال الفنى وهى مهمـة الخطاط لا مهمة مبتدع الخط او الطريقة » وإنى اذ أتمسـك بملاحظاتى فلأن الاستاذ الاخضر نفسه اعترف بأنه اضطر الى تغيير الخط لأسباب فنيـة ولا يمكن ان يعالج ذلك لا الخطاط ولا غيره وهذا نجده فى شـرح طـريقته وفى تطبيقه لها على آلة « مونوتيب » التى تحتاج كما ذكرت الى عمليتين • ثم إن الشكل يمطط الكلمات لأن أصل الحروف ليست مبتورة مثلما هو موجود فى طريقتى وهو فرق جوهرى ولو أن عدد الحروف يكاد يكون هو نفسه • ثم إن الطريقة التى ابتكرتها قادرة على أن تستعمل آلة « لينوتيب » التى هى أسرع من « المونوتيب » •

ولا أريد أن أفيض فى هذا خاصة وأنى لم أقدر على تطبيق طريقتى إذ بقيت نظرية ومهما كانت الحجة المنطقيـة قوية فانهـا تبقى مفتقـرة الى الملمـوس المحسوس •

وأخيرا فليسمح لى الاخ الاستاذ الكريم بشكره مـرة أخرى على إتـاحة الفرصة لى لتوضيح نقاط عديدة ولو مختصرة مما لم أقدر عليه عنـد جمـع عناصر كتابى •

البشير بن سلامة

أناشيد من تونس

بقلم : نور الدين بن بلقاسم

ـ نشيد ذاتي :

• لم أكن شيئا قبل أن أكون • ولما نزلت أرضا كنت كل شيء •

وطئت الارض فى ليلة مظلمة ، فمسحت أمي على جبيني وباركتني القابلة •

ورغم الظلام الحالك الذى فتحت فيه عيني فقد رأيت الحياة وهي تبتسم لي بشغف واغراء • فما كان مني الا أن انحنيت لها اكبارا • حين ذاك تقدمت نحوى الحياة وطبعت على جبيني قبلة اهتز لها كياني • وأحسست أن الوجود قد تسرب فى أعماقي • فصرت أشرف على العالم من عل • وتلمست قوقعتي التي كانت فوق ظهري فرأيت انها قد تشققت وبدأت تتناثر ، وخرج من تحتها جناحاي • فامتدا وطالا حتى احتضنا العالم كله • وقبل أن تقبلني الحياة كنت أحسب أن اخوتي هم الذين ولدتهم أمي • ولما احتضنتني فى حضنها الناعم • وقبلتني قبلتها الخالدة ، رأيت أن العالم كله بيت صغير يأوى اليه اخوتي • وأبصرت العالم بأسره قلوبا تنبض بالمودة • وأيقنت أن من اخوتي من يسكن فى الفيتنام وفى هونكونق وفى جبال الهملايا وفى كل ارجاء حديقتنا الارضية • حين ذاك احببت ذاتي أكثر ، وشعرت بتركيز كبير فى نفسي •••

عندئذ تقدمت مني الحياة ثانية وباركتني كما باركتني القابلة • وراقصتني على نغم توقعه أوتار الوجود الساحرة • نغم سرى فى كياني ، وزادني امتزاجا بالكون •

ـ نشيد اليوم والغد :

قلت لنفسي عندما كانت منتشية بأنغام الوجود ، لا بد أن يكون هناك هدف ومعنى لكي نحب الحياة ولا نهرب منها • فنظر الى أحد اخوتي وهو واقف على أحد جبال لبنان وهز رأسه ساخرا ••• وعلى وجهه يبدو الخوف

والرعب . قلت له وقد قرأت ما فى نفسه لكى نشق الطريق بأنفسنا علينا أن نكون أقوياء ، وأن نعرف العذاب حتى نصل نقطة القوة .

التفت نحوى عند ذاك أخى وهو يتراجع الى الوراء منفوق قمة الجبل وضحك ساخرا منى ثانية . ثم هز يده فى ذعر وأشار باصبعه الى سفح الجبل ، حيث تربض حية عظيمة ذات منظر بشع وجلد مبرقع بألف رقعة .

قال لى وهو يرتعش : انها ستبتلعنى .

قلت له : حاول أن تصعد الى القمة . قال لى : سأسقط وسيكون مصيرى الهلاك !

أجبته قائلا : ان الذى يسير الى الامام لا يخاف مغبة السقوط ، لان اكتشاف المجهول يغريه ويجتذبه . أما من يسير سيرا عكسيا فهو الذى يسقط فى الهاوية ... أشار الى أحد اخوتى وهو واقف على اهرام مصر : أن انظر رجلى مشلولتين وهذا الحر يأكل جلدى ! .

قلت له : حاول أن تقطع رجليك القديمتين ، وانزع عنك جلدك البالى ، وخذ الحياة بقوة حتى تستطيع أن تبنى أهراما جديدة تكسر شوكة الزمن ، وتدحر قوى الطبيعة . طأطأ رأسه فى سكون وبدأ ينكت الارض بالحصى ... قمت له انزع أثوابك البالية ، وهيا نسر سويا ونصعد الجبل ونضرب الحية من أعلى القمة . بكى عند ذلك فى ضعف . بينما تدحرج أخى الواقف على أحد جبال لبنان ، وكاد رأسه يتهشم ، لولا أنه تعلق باحدى الصخور الكبيرة . قلت لهما : علينا أن نحطم سجن الضعف الذى نحن فيه . ان سجننا لم يصنع من حديد ، انما هو سجن صنعناه بأنفسنا من ورق ، وهولت قوة جدرانه الانانية ، فصرنا نخاف عبوره .

ـ نشيد اللحظة :

كنت أتألم لان الحية التى أفزعت أخى قد شرعت فى الصعود الى الجبل . فنكست رأسى الهموم ، وعلى ملامحى بوادر ألف هزيمة .

قال لى أخوتى الآخرون وهم يسيرون فى دعة كأن شيئا لم يكن ، وخاطبونى مبالاة تنذر بالسوء :

اننا ننشد اللحظة وليس في قلب الغد ما يؤسينا • فهذه جبال لبنـان الساحرة تباركنا ، وهذه ضفاف النيل تغرينا ، وهذا وجه تونس الخضراء يهزنا حبا ونشوة • فمالنا والمشاكل ؟ وما شأننـا والتفكير ؟ • ان قلوبنا خلية • وثقل الغد يفسد عنا متعة اللحظة !•••

أجبتهم ونفسي مثقلة بالحزن : ان الحية الرقطاء قـد مـلات قلب الشرق وستأتي علينا جميعا ! •••

فهيا نشد بعضنا بعضا ، ولنسر منشدين نشيد بروميثيوس ، معتنقين دين زرادشت ، « ولنوقدها حمراء لا يردها انس ولا جان » فستتطهر نفوسنا ، وسنبني بسحر الارادة صرحا قويا نصعد عليه الى النجوم •

التفتوا الى جميعا ضاحكين قائلين :

ـ أنت أبله سطا عليك الجنون • نحن لا نقبل أن نكون على دين زرادشت لاننا نرغب في أن نشرب سلاف الحياة •

قلت لهم تمتعوا بالحياة وكونوا أقوياء يسحقون الضعف وينشدون نشيد الاجيـال الآتيــة •

فلم يأبهوا بقـولي •

وابتلـع صوتي الفضـاء •

ن• ب•

إفـريقيـا الشمـاليـة تسيـر

أهدانا المؤرخ الفرنسي الكبير شارل أندرى جوليان طبعة جديدة من كتابه « إفريقيا الشمالية تسير » وهي طبعة مزيدة وصل فيها الى سنوات الكفاح الاخيرة من تاريخ المغرب العربي •

نشكر الاستاذ الكبير ونهنئه على هذه الطبعة المفيدة جدا •

فن النثر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بتونس

الدكتور الهادى حموده الغزى

انبعاث الحياة الفكرية فى العصر الحسينى

تلاشت المعاهد العلمية وخلت من طلاب المعرفة اثر انحلال الدولة الحفصية وما أعقب ذلك من حروب وفتن بين الاتراك وبين الاسبان فى باديء الامر ثم بين الاتراك المتنافسين على الحكم • وظلت هذه الحال حتى قبيل ولاية حسين ابن على التركى مؤسس الاسرة الحسينية • فقد قدم من الاستانة الفقيه أحمد أفندى المشهور بالملى أفندى سنة ١١١٠ هـ ـ 1699 م وبث فى الديار التونسية علوم التفسير ، والفقه ، والعلوم العربية والبلاغة • ومن اشهر تلاميذه محمد الغماد الكبير ، وأبو يحى الرصاع ، ومحمد بوراوى ، وأبو القاسم البجائى وقاسم عضوم ، صاحب كتاب البرنامج (١) • وانبعث على أيدى هؤلاء التلاميذ حركة علمية نشيطة انتجت طبقة من اجلة العلماء المتبحرين فى العلوم المعروفة فى ذلك العصر • هذه الطبقة هى التى زينت العصر الحسينى ووضعت أسس النهضة العلمية والادبية • ومن أشهر علماء تلك الطبقة أبو عبد الله محمد زيتونة الملقب بحافظ المغرب (2) وقاسم المحجوب الملقب بصاحب المذهب اى المذهب المالكى ، ومحمد الخضراوى عالم افريقيا والشيخ سعيد الشريف وأحمد الشريف ومحمد سعادة ، ومحمد الشرفى ، وحمودة الريكلى مسامر على باشا الثانى (3) وعلى النورى ، وأحمد الماكودى ، وأبو عبد الله السوسى ، وعالم الحنفة وفقيهها محمد بن حسين بيرم ، ومحمد بن على الغريانى ، والعالم الرياضى محمد الشحمى مسامر على باشا الثانى(4)•وبسعى هؤلاء الاعلام وخاصة محمد بن على الغريانى، والعالم الرياضى محمد الشحمى مسامر على باشا الثانى (5) ظهرت طبقة من الشيوخ بهم ازدهرت الحركة العلمية وازدادت الجوامع والمساجد عمرانا (6) واصبح جامع الزيتونة قبلة التعليم فى العالم الاسلامى اذذاك بفضل جهود أولئك العلماء له طرقه ومناهجه التعليمية (8) التى تختلف عن طرق التعليم فى جامع الازهر

وفى مدينة فاس بالمغرب (9) ووصل تلامذة الشيوخ المتقدمين درجة الاجتهاد ، وأصبحت الفتاوى ترد عليهم من فاس والجزائر (10) وطرابلس والصحراء (11)

ومن أشهر علماء هذه الطبقة أحمد الابى الحنفى امام جامع صاحب الطابع الذى عرف بطريقته الجديدة فى تدريس كتاب البخارى ، اذ كان يفسر الالفاظ الصعبة ثم يسرد الظاهر من الحديث (12) ، ومحمد بن ملوكة صاحب الطريقة الجديدة فى التدريس ، فلقد كان يتخرج التلميذ من زاويته حافظا للقرآن ، عارفا بالرسم وبضروريات الدين ، وبتقويم لسانه بالعربية ، حافظا للفنون العلمية • وكان محمد بن ملوكة علاوة على تدريسه العلوم يروض تلاميذه خشية السآمة ، بالمصارعة والرماية وتلقف الكرة ونحو ذلك مما يحسن بالرجال « ويدرب على اقتحام الاجال » (13) • ومن الشيوخ أيضا عمر المحجوب المساكنى ومحمد صالح الكواش ، ومحمد بيرم الثانى ، واحمد البارودى تلميذ الشيخ الشحمى ، وابراهيم الرياحى ، ومحمد بن سلامة ، ومحمد الخضار ، ومحمد بن الخوجة ، مدرس تذكرة القرطبى (14) ومحمد المحجوب الذى يعرف المسائل الفقهية من عند رواياتها عن مالك بن أنس(15) • وحافظ المذهب الشيخ اسماعيل التميمى تلميذ صالح الكواش ومدرس شرح المحلى بجمع الجوامع وكان فقيها مجتهدا ولم ينكر عليه أحد ذلك وكان يعلم أعتماد كل متعلم فى المسائل العلمية على أى دليل (16) ومن العلماء البارزين لهذه الفترة الطاهر بن مسعود مدرس شرح القرطبى على الشمسية وعالم القيروان محمد بو بكر الصدام ومحمد حسن الهده •

وبفضل هؤلاء العلماء عادت حياة المناظرات العلمية للظهور من جديد كالتى جرت بين ابراهيم الرياحى وتلميذه القاضى البحرى فى مجلس مصطفى باى •

النثر فى العصر الحسينى

النثر فى العصر الحسينى صورة للاساليب النثرية الموروثة • ويتفرع الى فرعين : نثر علمى ونثر فنى ، فالنثر العلمى ينحصر فى نثر الكتب والرسائل العلمية ، وأما النثر الفنى فمنه فن الرسالة وفن المقامة وفن المقالة •

1 ـ النثر العلمى :

آزدهرت حركة التأليف فى العصر الحسينى أزدهارا لم تشهد تونس

له مثيلا منذ أن دخلها الاتراك (17) ، ويرجع الفضل فى هذا التحول الى بعض البايات الذين انتسبوا للعلم فالعلماء مثل على باشا الاول والثانى وحمودة باشا وأحمد المشير ٠ والذى حدا بهم الى رعاية العلماء ، رغبتهم فى انماء الشخصية التونسية قصد الاستقلال عن الخلافة العثمانية ، والبعد عن نفوذها ، ولذلك مالوا الى أهل البلد فشجعوا العلماء وأجزلوا لهم العطايا ، وظهرت ثمرة هذا الجهد فى منتصف القرن الثامن عشر ، اذ رأينا أنواعا من التآليف العلمية تعطينا صورة للنشر العلمى فى هذا العصر ٠

ومما يلاحظ أن لغة التآليف كانت ضعيفة فى بداية الحكم الحسينى وكانت تآليف بعض رجال القرن الثامن عشر لا تسلم من الاساليب المهلهلة والالفاظ العامية الركيكة كالذى نجده فى ثنايا كتاب الشرع الملكى فى سلطنة أولاد على التركى « لمحمد بن يوسف كقوله عن حسين بن على » ونزل عن فرسه يكبس(18) له حزامه واذا بالحاج على بن حمامة خلط (19) عليه » وقد رأينا بعضا من المؤلفين فى هذا العصر يلتزم طريقة السجع فى مؤلفاته من بداية التأليف حتى نهايته مثل العياضى فى كتابه « مفاتيح النصر فى التعريف بعلماء العصر » ٠ وهذه الطريقة المتكلفة مرهقة تورث المطالع الضيق والملل وتشعر مسبقا أن المؤلف حمل نفسه من المشقة والجهد مالا يكاد يتحمل سعيا وراء السجعة المناسبة الرنانة كقول العياضى :

لك الحمد يا مرصع رياض الدفاتر بماء المعانى ويا مكلل نحور الالفاظ بدرر البلاغة حتى أصبحت أبهى من الدرر فى نحور الغوانى ويا مونع أغصان الفصاحة بنسيم البيان ويا منطق بلابل البلاغة على غصن اللسان (20) ٠٠٠ »

وحين يتحدث عن على باشا الاول مقرظا ومادحا ، يقول :

« والشاهد على ما أقول شرحه لتسهيل ابن مالك الذى لم يكن يكرع من زلال مائه الا الاكابر والفحول شرحه شرحا بديعا ورصعه بجواهر المعانى ترصيعا ٠٠٠ » (21)

فأنت ترى أن المؤلف كلف نفسه شططا فى البحث عن السجع وجمع ما استطاع من صور الاستعارات فى العبارة الواحدة ، وهذا مقياس الجودة السائد فى ذلك العصر ، غير أن طريقة الترسل فى الكتب العلمية ظلت الطابع الغالب مثل حسن خوجة الذى سار فى كتابه الذيل على بشائر أهل الايمان على

الطريقة الترسلية ، وهو كتاب ترجم فيه لعلماء عصر حسين بن علي مؤسس الاسرة الحسينية ، متوخيا الالفاظ السهلة والتعابير الواضحة . انظر اليه كيف يحدثنا عن قتل رمضان باي بأسلوبه السهل المشوق :

بدأ رمضان باي يتأهب لمحاربة أهل الجزائر فقام عليه أحد خدامه من أغوات جنده « الاسباهية » وغدر به وضربه ببندقة فأصابته فمات منها وقطع رأسه ورأس آبني عمه محمد باي وقتل بقية أولادهم وانتهت دولتهم سنة 1114 هـ - 1701 م ... » (22)

وهذا الاسلوب بداية تأليفه هو نفسه الذى التزمه حتى نهاية كتابه ، يقول فى ترجمته لمحمد الحركافى الضرير ، وهو من علماء عصر حسين بن علي التركي :

« ثم رتبه الامير ، حفظه الله ، لتجويد القرآن العظيم بالجامع الاعظم جامع الزيتونة ورتب له الطلبة وعين للشيخ والطلبة مرتبا معلوما فى كل شهر ووقف على ذلك أوقافا للترغيب فى تكثير المجودين ... » (23)

فالأسلوب كما ترى مرسل وان كان لا يخلو من اللوثة العامية فى قوله « ثم رتبه الامير » وهذه ظاهرة مألوفة لازمت الكتاب الحسينيين الى موفى منتصف القرن التاسع عشر (24) .

وما أن آنقضى القرن الثامن عشر حتى رأينا تطورا ناضجا لاساليب النثر العلمي ، اذ استعادت لغة التأليف مكانتها وكثيرا من دقتها التعبيرية ، والبعد عن طريق السجع والتصنع الكاذب . ومن مشاهير الكتاب العلماء الذين وضعوا أسس النثر العلمي المرسل حمودة بن عبد العزيز بكتابه « التاريخ الباشى » وأحمد بن أبى الضياف بمصنفه الضخم . « اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الامان » والباجى المسعودى بكتابه « الخلاصة النقية فى أمراء افريقية » و « تاريخ تونس » لصالح الكواش .

وكان ابن أبى الضياف أكثر المؤلفين تأثيرا فى تطوير النثر العلمي اذ نزع فيه الى أسلوب أعلام الاندلس وفى مقدمة اولئك الاعلام الذين اقتفى أثرهم المقرى صاحب « نفح الطيب » (25) .

والى جانب هذا اللون من التآليف العلمية ظهر في العصر الحسيني ضرب آخر من الانتاج العلمي يخص الرسائل العلمية • وهى لا تعدو أن تكون بحوثا علمية قصيرة تدور على التوجيه التعليمي أحيانا كرسائل على النوري في ذم الدخان (26) • وقد تتخذ شكل ردود علمية كرسالة محمد المحجوب في الرد على زعيم الدعوة الوهابية(27)،وتوضيح بعض المسائل والاشكالات العلمية مثل رسالة ابراهيم الرياحي في موضوع « ارتفاع الحكم بارتفاع علته اذا ما علل » كتبها في أعقاب مناظرة دارت بين عالم مغربي وآخر تونسي (28) ومثل رسالة الشيخ اسماعيل التميمي في « الحلال والحرام من الطعام » (29) ورسالة بعضهم في حكم استعمال ماء الكلونيا بعد أن أفتى أحد فقهاء الحنفية بحرية استعماله (30)

وهذا الضرب من الرسائل يعطينا صورة للمستوى العقلي لهذا العصر • ونجد الاسلوب فيه قائما على البحث العلمي الدقيق والاعتماد في الاستدلال على الكتاب والسنة والحجج المنطقية كرسالة ابراهيم الرياحي وعنوانها « قطع اللجاج في نازلة أولاد سليمان ابن الحاج » (31) •

وفي جميع هذه الرسائل العلمية لا تجد الا الاسلوب العلمي الرصين وطريقة الترسل الخالية من السجع (32) كقول ابراهيم الرياحي في رسالته المتقدمة « وذلك أني سئلت عن مفاصلة وقعت بينهم في مخلف أبيهم كتبت في رسمين أحدهما مضمن به أن المفاصلة في أمور معينة ، وثانيهما أن المفاصلة وقعت فيها مباراة على وجه العموم بحيث لم تبق بينهم دعوى غبن ولا دعوى زيادة •• »

ثم أراد أحدهم القيام بأمور كثيرة وأموال خطيرة اطلع عليها بعد المفاصلة المذكورة فهل يمكن شرعا من القيام بذلك أولا ؟ فكان للذي ظهر لمزجي البضاعة أنه يمكن من ذلك • (33)

غير أن الرسائل العلمية هذه كثيرا ما تحلى في الاول بفقرة مسجوعة وتختم بمثلها (34) ، وما سوى ذلك فان أسلوب الرسالة العلمية لا يختلف عن أساليب التأليف المتحررة من قيود السجع • وظلت الحال على ما هى عليه الى أن صدر كتاب خير الدين باشا أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك وكتاب محمد بيرم الخامس «صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار» فأحدث انقلابا في أساليب التأليف على الطريقة الترسلية واللغة السهلة الواضحة ، والمواضيع الطريفة الشيقة • وكان لهذين المؤلفين الاثر البعيد في صقل التأليف وتهذيب الاساليب بالنسبة للكتاب الذين جاءوا بعد هذا العصر ويعتبر صفوة الاعتبار انعكاسا صادقا لمنهج خير الدين في الاسلوب بطريقة البحث •

النثـــر الفـــنى

اذا كان العصر الحسينى يعتبر بداية لانبعاث النهضـة الادبيـة فى تونـس ولتطور الاساليب النثرية بها ، فان القرن الثامن عشر ومعظم القرن الذى تلاه كان طابع النثر الفنى فيها التقليد والمحاكاة لاساليب مـوروثة عن عصـور الانحطاط ٠

ويتمـثل النثـر الفـنى فى :

فـن الرسـائـل الرسميـة

اهتم البايات بهذا اللون من النثر الفنى لما له من الاثر البعيـد فى حياتهـم السياسية واتخذوا من أجل ذلك كاتبا أسموه « باش كاتب » مرة ، وصاحـب قلم الانشاء مرة أخرى وهو فى رتبة الوزير ، ومـن أشهـر كتـاب البايـات الحسينيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر « حيدر خوجة ، وعبد الله السهيلى ، وكان هذا الاخير فى أيام على باشا ابن محمد باى (35) وحمودة بن عبد العزيز فى ولاية على بن حسين باى وابنه حمودة باى ، ثم زوحـم هـذا الكاتب النبيه بمحمد حسن بن عبد الكريم الشريف (36) ، ومن هؤلاء الكتـاب المشهورين فى هذا الفن احمد ابن أبى الضياف ومحمد الباجى المسعودى (37) والى جانب أولئك الكتاب البارعين توجد ثلة من الادباء صدرت عنهم كتابات رسمية مثل عبد الرحمن البقلوطى ، ومحمد المناعى (38) والشيخ اسماعيـل التميمى (39) ، ومحمد بيرم (40) ٠ وكانت توجه تلك الرسائل ، غالبا ، الى تركيا والمغرب الاقصى والجزائر ، والى القنصليات الاجنبية بتونس ٠

ولم تكن تخلو هذه المكاتبات فى مبدأ الامر من الضعف لغة وتركيبا٠ ولكن ما ان جاء القرن التاسع عشر حتى اكتملت فنيا ــ على نحو تقليدى ــ باكتمال ثقافة أصحابها السلفيـة ٠

واسلوب تلك الرسائل يختلف باختلاف الجهة التى توجه اليها فما كان منها مرسلا الى الدولة العلية والسلطنة المغربية الشريفة يتسم بالطابـع التقليـدى الشديد والحرص على السجع والمحسنات البديعية كالطباق والجناس ، وضرب المثل من القرآن والحديث ، ومأثور الاقوال ٠

وتستهل عادة بالبسملة والحمد له ، ثم الدعاء لا سيمـا اذا كانت موجهـة الى دار الخلافة وتختم أيضا بالدعاء ، يلاحظ ذلك فى الرسالة التى أجاب بها

الباى الاستانه حين طلبت معونة من تونس ابان الحرب العثمانية مع اليونان (41)

وكذلك فى الرسالة التى رفض فيها المشير أحمد باى الاول دفع الاداء السنوى الذى فرضته تركيا على الايالة التونسية (42) وفى عموم رسائل البايات الاستانه حين يموت خليفة ويقوم خليفة ومثل هذا أيضا فى رسائل البايات لطلب الخلعة والفرمان من ذلك :

« الحضرة العليا الخاقانية المصونة بالعمل والنية المتوجهة لها الآمال من كل ثنية ، واثقة من عدلها وفضلها ببلوغ الامنية والشمس عن مدح المادح غنية . أما بعد السلام على أمير المؤمنين،ورحمة الله،فان العبد الشاكر على وراثةخدمته الناشيء فى نعمته ، السابح فى بحور منته ، يعرض للاعتاب العالية ومنبع الفواضل المتوالية ، أنه تقدم منه اخبار للباب العالى بوفاة أخيه ، وللحضرة العلية طول العمر ودوام الامر ... ووجه كتاب الفضل عبد السلطنة العلية نحية الاعيان وصفوة الاقران ، وزير البحر أمير الامراء ابننا خير الدين يطلب على لسان العبد الفقير المعتاد منه بباب السلاطين ... » (43)

وعلى هذا اللون من الخضوع والاسلوب المتصنع يكاتب البايات الصدارة العظمى ورجال دولتها . (44)

أما الرسائل الموجهة من البايات الى أعوانهم من الوزراء ورجال الدين ، فان طابعها العام البسملة والحمد له ثم بسط الموضوع والخاتمة ، والاسلوب المتبع فى جميعها هو السجع ، ولكن على غير النحو الذى عرفنا من المغالاة فى الثناء والتعظيم ، الا اذا كان المخاطب عالى المنزلة كاصحاب الطرق الصوفية ومن جاء على شاكلتهم ، فان البايات تراهم لا يدخرون جهدا فى تعظيمهم واجلالهم والتأنق فى خطابهم مثل رسالة محمد الرشيد باى الى صاحب الطريقة الشيخ أبى العباس ، أحمد بن باباس فقد افتتحها بالشعر ثم قال : « الحمد لله الذى به تتجلى الكربات ، وتكشف البليات ، وتتسرى النكبات ، وتدرأ الرزايات . والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه ، وحبيبه ومجتباه ... أين أنت عن المولى الذى ربضت الفضائل بناديه ولبى المنى لمناديه ، وعرجت الآمال بأرجائه وآب قاصده برجائه ، وانتشرت معارفه فى الاقطار ، وكتبت على صفحات الزمان مفاخره وصفت بواطنه وظواهره ... مولاى وأستاذى أبو العباس سيدى أحمد بن باباس . (45)

ثم يشرح موقفه من بن عمه علي باشا بن محمد باي ، وظلمه له وجوره عليه، ثم يسترسل في شكواه الى أن يقول في آخر هذه الرسالة ، حتى يقول :

(فلا تتركني مضاعا ، وفؤادي ملتاعا ، وقلبي شعاعا ، وأشجاني أجناسا وأبواعا ، كيف لا أظفر بمرادي ، وأنتم مخيم ودادي وموالي وأسيادي ، وعليكم اعتمادي ، وبهمتكم أعدادي ، واسعادي ٠٠) ثم يختتم محمد الرشيد بـاي رسالته ، متوسلا بالاولياء والصالحين ٠

ويقرب من هذا اللون ما كتبه حمودة بن عبد العزيز على لسان سيده علي بن بن باشا بن حسين باي الى شيخ الطريقة الوفائية وهو يوسف بن ناصر يخبر بانضمام علي باشا اليه ودخوله في حزبه وطريقته ، يقول :

(المقام الذي تقتبس منه انوار المعارف وتستمنح منه لمحات العوارف متفيأ على الايام ظله الوارف ، وتصرف عنه القلوب الى حضرة القدس العـوارف ، وتنسكب فيه من خشية الله تعالى الدموع الذوارف ، نهضة البركات وينبوع العرفان ومحط رجال الافاضل من كل قاصد ودان ، حضرة الاستاذ الاعظـــم الطيب الظاهر ، ذي المناقب والمفاخر ، العلامة الفاضل ، الوفائي ، الكامـل مولاي أبي المحاسن سيدي يوسف بن ناصر ، أدام الله عليه من معارفة أمدادها وأتم نعمته عليه وزادها ٠٠٠) (46) .

ويمضي على هذا النسق من الاغراق في الاطراء والابتهال والدعاء والتسليم ، ثم يعرب عن تعلقه بصاحب الطريقة ورجائه الدخول فيها ويخبره أن أحد أتباعه أي يوسف بن ناصر ، في الطريقة ، قد استضافه « فاستدعينـاه لزيارتنـــا التماسا لبركته التي بها حصل طريفها وتلادها ، واقتباسا من مشكاة أنواره التي منكم استمدادها ، فرأينا عليه هيبة المعرفة ، ونضارة العبادة ووقارالخشية ورقة الوجد ، وارتياح الشوق ، ومتانة الديانة ، وقبول الاخلاص ، وأنبناه عنا في مصافحة يدكم الكريمة ، والتماس دعواتكم المباركة العميمة ٠ والله تعـالى يديم بهجة هذا العالم ببقائكم ، ويزيدكم درجة في صعودكم الى مراتب القرب وارتقائكم ٠ آمين » ٠

ومما يلاحظ في هذه الرسالة ، هو هذا السلطان القوي لشيـوخ الطـرق لتعصبهم بالعامة وقد كشف عنه الكاتب بما أظهر من اعظام الباي على لهذاالشيخ وقد توخى في أول هذه الرسالة أسلوبا مسجعا ، ثم عدل عنه الى الازدواج في

جمل قصيرة كقوله : « فرأينا عليه هيبة المعرفة ، ونضارة العبادة ، ووقار الخشية ، ورقة الوجد ، وارتياح الشوق ومتانة الديانة ، وقبول الاخلاص » ولكن الكاتب عدل بعد هذه الفقرة الى الاسلوب الاول بما فيه من تصنع وتكلف مما يجعلنا نلاحظ أن قيود السجع بدأت تنحل ولكن ببطء شديد ، وأن فن الترسل بدأ يستهوى كتاب هذا القرن · غير أن التزويق اللفظى ظاهر الحرص فى كل من الرسالتين يواكبه خضوع وتضرع فى الرسالة الاولى ، وهيبة واشفاق فى الثانية ، وليس هذا بغريب فان عموم الرسائل الرسمية تتم بمثل هذه السمة ولا تخلو منها الا اذا صدرت لمن ليس له سلطة كهذه السلطة الروحية والادبية ، على أن المحافظة على الاسلوب القديم ، هو هو لم يتغير ، مثل رسالة على باى حين امتنع عن قبول استقالة الشيخ محمد بيرم (47) ، ورسالة الشيخ اسماعيل التميمى التى كتبها على لسان مخدومه ، مهددا قاضى ومفتى سوسة بالعزل اذا ما تماديا فى المهاترة والخلاف ومثل ذلك رسالة محمد المناعى التى كتبها على لسان الباى محمد يخبر فيها أخاه محمد الصادق بقتله لوزيره شاكير (49) ، ففى كل هذه الرسائل ينكشف تكلفه وعنايته بالتزويق اللفظى وضرب المثل والمحافظة الشديدة على السجع · وفى أيام محمد الصادق باى يلاحظ أن كتاب الدواوين ازدادوا تعلقا وغلوا فى هذا اللون من الفن الرسالى فكثر التفخيم فى ما يكتبون ، واضفاء الالقاب بلا حساب وكان من أسباب ذلك ما كان ينفثه قنصل فرنسا فى أذن الصادق باى من أوهام الملك والسلطان (50)

[illegible]
تباشير جدية فى أساليب الرسالة الديوانية الى جانب شيوع تلك النزعة التقليدية وبداياتها فى الواقع ظهرت فى أيام حمودة باشا وذلك فى رسالته التى وجهها الصاحب الجزائر يخبره فيها بأن تونس غير مستعدة فى المستقبل لتتكفل ببيع ما ترسله الجزائر الى اسواق الامارة التونسية والرسالة هى :

« ان البقر أمرنا ببيعه على يد عدلين وتجمع من ثمنه كذا ، وتولى قبضه رسولكم بأمرنا وان أرسلتم بعد شيئا للبيع فليكن خطابكم فى ذلك لوكيلكم ، وحاله فى ذلك كعامة أهل البلد من غير فرق ، وقد كنا نرى أن فعلنا معكم سابقا انماهو ثمرة محبة،وحيثرأيتموه واجبا فلا نسلم لكمهذا الوجوب· (51)

فانت ترى أن هذه الرسالة خالية من السجع والصنعة خلوا تاما · وكان حمودة باشا بأسلوبه هذا استخف بالوالى التركى بالجزائر · ولقد ازداد – من بعد – فن الترسل فى الرسائل الديوانية انتشارا واصبح طابع كل رسائل

البايات تقريبا الى قناصل الدول الاوروبية بتونس تخلو خلوا تاما من هـذه الزخارف اللفظية (52) ومثل ذلك أيضا الرسائل التى تبادلها على بن غذاهم مع محمد الصادق باى وشيخ الاسلام أحمد بن حسين الكافى فى شأن التخفيف من الضرائب التى كانت سببا فى ثورة ابن غذاهم الفاشلة (53) فان كل هذه الرسائل تخلو من الاسجاع وليس فيها غير الترسل أسلوبا ، وكذلك رسالة شيخ الاسلام أحمد بن حسين وهى : « بلغنا كتابكم ، وعلمنا ما ذكرتموه مما تروجه العربان من التخفيف وأن ذلك دعاهم الى المخاطبة فى شأنهم ، والـذى نعرفكم به أن الواجب أن يعتبر الانسان اساءة أعماله ، وما يؤول اليه الحال خشية أن تنقلب المصلحة مفسدة ، ولا يعتبر الانسان بكلام لا يريد الا مصلحة نفسه ولا عليه فى المسلمين ، وعلى ذلك يلزم أن تعرفنا بالتخفيف الذى أرادته العروش تحرره لنا مفصلا على وجه معقول يسوغ طلبه عند ذلك مـن جنـاب سيدنا أيده الله تعالى بمقتضى الفضل ، ونرجو أن يعامل رعيته بما تقتضيـه شفقته عليهم ويخفف عنهم ويرضى عليهم » • (54)

فانك تلاحظ أن هناك ضعفا فى التعبير والاسلوب ، ومثل ذلك طبيعى لان فن الترسـل مـا يـزال فى بـدايته الاولى التى تخلـو من الضعف والخطـأ أحيانا ، كرسالة على بن غذاهم الى أحمد بن حسين المتقدم الذكر • يقول فيها بعد الافتتاحية •

« ••• والذى يتشرف طرفك انفضيل الخير ، ان شاء الله ، أننا قادمين ـ كذا ـ على المحروسة « تونس ، ونريد أن نتكلم فى مصالح المسلمين لما أحاط بهم من الضرر وشدة الطلب وهلاك العالم من الماء الى الماء (؟) وأن الدولة متشددوا ـ كذا ـ عليهم ، وكثرت حيرتهم « من شدة ما حل بهم فلذلك تحيرت وتعصبت واتفقت على عدم أداء مارتب للدولة كما فى علمكم ••• »

وظاهرة الاخطاء المختلفة وضعف الاسلوب فى هذه الرسالة واضحة جليـة غير أن مثل هذه الاخطاء النحوية واللغوية ، وضعف الاسلوب تبـدو بصـورة أوضح فيما اشتمل عليه كناش محمد مرابط من الرسائل كهذه الرسالة التى أرسلها الى الوزير الاكبر يخبره فيها بنزول الغيث النافع وهى على صورة مـا يعرف اليوم بالتقارير الرسمية •

« وبعد ان فى أمس التاريخ رزقنا الله بمطر غزير ووقع فيه الحجارة أضرت بعض المزارع الا أنه بأماكن قليلة وفى هذا الوقت لاحاجة للفلاحة بما ذكـر • ليكن ذلك بشريف العلم • والله يديم حفظكم » (55) •

ولسنا فى حاجة الى أن نشير الى الاخطاء اللغوية ، والتركيبية الواردة فى هذه الرسالة القصيرة فكل ذلك ظاهر جلى ، مما يدلنا على أن فن الترسل مـا يزال فى بداياته الاولى ، متعثرا ، ومرد ذلك كما يظهر ، الى أن كثيرامنالمترسلين هم ضعاف فى اللغة . ولعل ضعفهم هذا سبب فى بعدهم عن قيود السجع .

المصـــــادر :

1 ـ الذيل على بشائر أهل الايمان ص 73
2 ـ أليس الصبح بقريب للطاهر بن عاشور ص 9 وتاريخ ابن أبىالضياف 3 ـ 104 .
3 ـ أليس الصبح بقريب ص 92 .
4 ـ مجمع الدواوين مخطوط بالخلدونية رقم 3261 ج 1/186 ، 187 .
5 ـ شمس الاسلام ج 5 ، 6 مجلد أول ص 198 وتاريخ ابن أبى الضياف 4/8
6 ـ الذيل على بشائر أهل الايمان ص 73 .
7 ـ أليس الصبح بقريب ص 9 وتاريخ ابن أبى الضياف 104/3 .
8 ـ أليس الصبح بقريب ص 92 .
9 ـ تاريخ ابن أبى الرصافى 4/8
10 ـ شمس الاسلام ج 5 ، 6 مجلد أول ص 198 .
11 ـ تاريخ بن أبى الضياف 104/8
12 ـ المصدر نفسه 109/8
13 ـ المصدر نفسه 86/7 ـ 109 ـ 171
14 ـ المصدر نفسه 12/8
15 ـ شمس الاسلام ج 5 . 6 ثم مجلد أول من 198 وتاريخ ابن أبى الضياف 12/8
16 ـ مسامرات الظريف 204/1 ، 205
17 ـ مجلة الثريا السنة الاولى عدد 5/5 ماى سنة 1944 ص 29
18 ـ أى يشل حزامة
19 ـ التحق به وأدركـــه .
20 ـ مفاتيـــح النصر ص 1
21 ـ مفاتيـــح النصر ص 2
22 ـ كتاب الذيـــل ص 10
23 ـ كتاب الذيل ص 162 ، 163

24 ـ مجلة الفكر عدد 6 ديسمبر 1969 ص 36 ، 38
25 ـ المجلة الزيتونية ج 1 م 3 ص 20
26 ـ مجموع رسائل مخطوط بالخلدونية رقم 3280 ص 3 وما بعدها
27 ـ تاريخ أبن أبى الضياف 64/3
28 ـ مجموع رسائل مخطوط بالخلدونية رقم 1802 القسم الثانى ص 11 ، 12
29 ـ المصدر السابق ص 2 ، 3 ، 4 وما بعدها
30 ـ المصدر السابق القسم الثالث ص 1 ، 7
31 ـ المصدر السابق القسم الاول ص 7
32 ـ مجمع الدواوين 261/1
33 ـ مجموع رسائل بالخلدونية مخطوط رقم 1802 ص 7
34 ـ تاريخ ابن أبى الضياف 64/3 وما بعدها
35 ـ المشرع الملكى ص 241 وتاريخ ابن ابى الضياف 2 : 123
36 ـ تاريخ ابن أبى الضياف ، 3 : 18 ، 19
37 ـ المصدر السابق ، 3 : 225
38 ـ المصدر السابق ، 3 : 225 وهامش كنش الادب التونسى لشيخ محمد ماضـور ص 4
39 ـ تاريخ ابن أبى الضياف ، 3 : 226
40 ـ المصدر السابق ، 7 : 161
41 ـ المصدر السابق ، 3 : 135 ، 136
42 ـ المصدر السابق ، 4 : 19
43 ـ المصدر السابق ، 4 : 189 ، 19/5
44 ـ المصدر السابق ، 5 : 59
45 ـ مسامرات الظريف بحسن التعريف للسنوسى 1 : 19 وما بعدها
46 ـ مجمع الدواوين للسنوسى ، 2 : 160 وما بعدها
47 ـ تاريخ ابن أبى الضياف ، 2 : 161
48 ـ المصدر نفسه 3 : 126
49 ـ المصدر نفسه ، 3 : 125
50 ـ المصدر نفسه ، 5 : 19
51 ـ المصدر نفسه ، 3 : 41
52 ـ المصدر نفسه ، 3 : 205
53 ـ المصدر نفسه ، 5 : 60
54 ـ المصدر نفسه ، 5 : 161
55 : كنش محمد مرابط مخطوط بالدار الوطنية 3320 ص 39

ثرثرة على الورق

قصة ، بقلم : فاطمة سليم العلاني

لقد منيت بهزيمة ما ·· وكان زادى من الصبر قليلا وفكرى بالمظلمة مشغولا واستسلمت للثرثرة · بت طول الليل مسهدة أرعى انفاس النائمين من حولى مقرفصة فى فراشى ، أشد قلبى من الألم ، أشد رأسى من القلق ، أحملق فى الظلماء ، وأرى فيها كل الالوان القزحية تتشاكل وتتراقص لا لتكون أشكالا تسر الناظرين بل عفاريت فاغرة أفواهها متلولبة بعضها حول بعض يقدح من عيونها الشرر تتقدم نحوى تتقدم ، تتقـدم ، راقصـة على أنغـام الزنـوج المتحمسين لتحيط بى لتطوق جسمى كالحبال اللينة ملساء تدغدغنى ، تحب أن تضحكنى ، ولكن الضحك ثمنه باهظ جدا لا أقوى عليه وانـا فاشلـة ، وتسئمنى جلسة القرفصاء هذه وأحب ان أرهب الثعابين فأتمـدد على ظهرى وأمد يدى نزر النور الباهت الذى يؤنسنى عادة عندمـا أقلـق فى الأثـلاث الأخيرة من الليل ، وأتحسس مصحفى الصغير ·· أتصفحه أقرأ منه آيات بينات فاذا البرد والسلام ينزلان على قلبى وطعم العسل المصفى يتريق فى فمى واذا النور الحقيقى يملأ مقلتى ، واذا الثعابين والشيـاطين والانس والجـن وسوء الظن ، والفشـل ، والقلـق ، يحتـرق منه ما يحترق ويتبخر منه مـا يتبخر ·· وجاءنى النوم يسعى برجليه طالبا ودى بعد أن عز على مقـدمه ، وأفقت مقتنعة شبعانة بما نلت من غذاء الكرى ، ولكننى وجدت آثـار الملـح حول عينى ، فى أعالى وجنتى : لعلى بكيت ·· بكيت وأنا فى المنام حتى ابتلت مخدتى ·· حتى اغتسل وجهى ·· حتى فاضت الانهار والوديان وابتلعت ما اعترضها فى طريقها ، وضحكت الارض من بعدها وفجرت زرعها ووردها·· حتى أشرق الشروق وغمرتنا سيول الضـوء المحـرورة من شمس أوائـل الصيـف ·

لاول مرة منذ مدة طويلة أرتدى ثيابى على عجل وأجعد شعرى كما اتفـق وأنسى الالوان أمسحق بها وجهى لأوارى حزنى العميـق وأنسى النظـر فى مرآة الصوان والتلولب حول نفسى مرات ومرات ·

لقد قررت أن أهيم على وجهى يوما كاملا بلا هدف ولا غاية ·

هل أعبر الطريق الغاصة بالعجلات والمحركات والارجل والضجيج والمآرب أم أتوقف لأفكر وأتذكر ٠

خير لى من كل ذلك أن أقف لحظة أمام هذه الواجهة وأتظاهر بالبهجة لجمال ألوان هذا القماش الذى قد أقتنيه لأغلف المقعد العتيق الذى اشتريته من سوق الاثاث العتيق ونويت أن أبهرجه من الظاهر ليجلب اليه الناظرين والجالسين فيمدحون تغليفه ويطرون جلسته المريحة وهم لا يدرون البشاعة التى هو عليها والزمن العتيق الذى صنع فيه ٠٠ خير لى ان أفكر لأتعلم كيف أحيا من أن أعبر الطريق وأنا هيمانة وقد تدهسنى العجلات والارجل وأفقد الحياة ٠٠ أنتم لا تعرفون كم أعشق الحياة رغم كل ما فيها ، كم أتشبث بها ، لا لشيء إلا لانها تأتينى كل يوم بالجديد ٠ ولو قلت هذا لاحدى صديقات الطفولة لفغرت فاها وبحلقتعينيها ودقت صدرها وقالت :

ــ أنت تتشبثين بالحياة ؟ عجبا أتذكرين عندما كنت تلميذة شاعرة وكان لك صديق يطلب آداب العرب فى احدى جامعات المشرق وكنتما تتراسلان بالشعر ، وذات مرة كتب لك أحدهم يقول : « أسليك يا آنسة أخونا ابتلعه الحوت فى اليم » وعشت أياما مضربة عن الكلام وعن الطعام وقررت يوما أن تلتحقى بالرفيق الاعلى لتواصلى دراسة الآداب مع الاخ الذى ابتلعه الحوت ٠

وحاورت نفسك وجادلت عزرائيل حول أسلوب لطيف ظريف تنتقلين به الى العالم الآخر ٠٠ أتذكرين يا صاحبتى عندما وقفت على منصة القسم فى فترة ما بين الدروس لتقولى لكل الزميلات : سكوتا وإنصاتا ، ولما حصل السكوت والانصات بكيت وودعت وأوصيت ، وضج القسم بالتصفيق لبراعتك فى التمثيل ولنجاح النكتة وقد تعودنا منك كل طريف وكل مثير ٠ ولما غدا الغد نظرنا فاذا مقعدك خال ، وديونك خالصة ووصاياك كثيرة فتطرق الينا الشك وتململنا على نار الانتظار وكثرت بيننا الهمهمات وتراشقنا بالاوراق الصغيرة المطوية فى غفلة من الاستاذ وكان يقول لنا من حين لآخر : هل فهمتن ما قاله أبو هريرة ؟ فنجيب : نعم يا أستاذ ٠٠ أبو هريرة رجل عظيم له هرة جميلة أميرة الهررة بلا شك ، فيطرق على المكتب ويواصل : اذا نقرر هذا فلننتقل الى المسألة الموالية ٠

وما إن رن جرس الخروج حتى هجمنا على باب المدرسة فارات كمن شب فيهن حريق ولم ترجعنا للنظام حتى صفارة القيم وهو يتوعد المتهمجات

بالحجز والتضييق وركضنا عبر الطريق كاللبؤات الهائجة الفارة من أقفاصها نكاد نرمى بمحفظاتنا الثقيلة على الرصيف لانها تعطل جرينا ووصلنا لاهثات الى بيتك وقررنا خلع الباب إن لم يفتح لنا · وكان بعضنا يبكى خوفا من أن يكون الوقت قد فات ، وبعضنا يعبر عن حزنه بالضحك الهستيرى ، وبعضنا صامت يفكر فى حيل الانقاذ وفتحت لنا خادمتكم الباب فهجمنا عليها وصعدنا المدرج على جثتها حتى أغمى عليها من الفزع إذ ظنت ان الجيوش الفرنسية تطاردنا وتهاجم المنزل لتزعج من فيه ، وعلى فراشك وجدناك تغطين فى نوم عميق وبجانبك علبة اسبرين فارغة وكأس من الماء فصرخنا وولولنا وهززناك هزة أفاقتك من موتتك الصغيرة ·

تذكرت إحدى هاتيك الصديقات فسقت رجلى الى دارها لأجدد معها العهد القديم ولأعتذر لها عن الاحتجاب الذى دام مدة أنجبت فيها عشرا من البنين والبنات ، أنجبتهم بكامل إرادتها وهى فى كامل وعيها ، وأدركت بذلك أملها · فعندما كنا صبايا نسهر فى ليالى القمر بحديقة المبيت نناجى الطبيعة وتتكىء إحدانا على الاخرى تسكرنا النسمة الطرية والزقزقة الموسيقية العذبة وحفيف الاوراق المتمايلة فى أجمات الشجر ·· كنا نحكى عن المستقبل ونزفر من أعماقنا :

ـ « آه يا ربى متى ننجح فى امتحاناتنا ونغادر هذا السجن الى الدنيا الفسيحة فنتوظف ونعيش كما نحب ونشتهى وندخل الحياة من بابها الكبير »·

وكانت هى تقول :

ـ « آه يا ربى متى أخرج من هذا السجن ناجحة أو غير ناجحة لأتزوج وأنجب عشرا من البنين والبنات يملؤون على الدنيا ، ويأخذون كل وقتى ، ويريحوننى من الكتب والامتحانات ونشدان المعالى » ·

وكنا نضحك لكلامها الغريب ونداعبها :

ـ ولماذا عشرة فقط فليكونوا عشرين ·

ـ لا شك أنك ستؤلفين منهم فرقة موسيقية للعزف والانشاد فى المواسم والأعياد ·

ـ أو طابورا من الجيش ·· الاحتياطى يصلح للاسعاف والانقاذ فى الحوادث الطارئة » ·

ويبدو الغضب فى رنات صوتها :

ــ انتن لا تفرقن بين الجد والهزل ٠٠ اسم الله على أولادى ٠٠ احفظهم يا ربى من عيون الاشرار والابرار والمؤمنين والكفار ٠

ــ هيا يا أم العشرة ، فالقيمة تصفق ٠

أحيانا يعجبنى فى الزمن طوله وتحقيقه لأمانى الناس ٠

كان فألى فى الحياة ــ وأنا دون العاشرة من عمرى ــ أن أصبح معلمة ، كنت أجمع كل الوسائد الموجودة فى الدار وأصففها على الفراش واحدة بجانب واحدة ، وأمسك بيمينى مسطرة وبيسارى كتابا ثم أشرع فى شرح الدرس متوهمة أننى معلمة والوسائد تلميذاتى وأعطى لكل واحدة منهن اسما خاصا وألقنهن دروسا فى الاخلاق وحسن الاستقامة والنظافة وآداب الحوار :

ــ « أنت يا كاميليا اختارى كلماتك ٠٠ واعرفى كيف تخاطبين الناس بما يفهمون » ٠

ــ « وأنت يا شهرزاد استظهرى محفوظتك بصوت عال وبالقاء بديع ٠٠ لا أريدك ببغاء ٠٠ أريدك ممثلة بارعة ، وأديبة ذكية ٠٠ إن ذلك ينفعك فى الحيـاة » ٠

ــ « أما أنت ، يا قرنفلة ، فقد آن أوان تأديبك ؛ لأنك تشوشين أثناء حصة الحساب » ٠

وأهوى على الوسادة بالضرب المبرح ، ويعلو صراخى المزدوج فتسرع أمى الى إنقاذ الوسادة المسكينة من بين يدى قبل أن أفتتها ٠

ــ « أو هكذا تفعل المعلمات الطيبات يا سلام ٠٠ كما حقق الـزمن آمـالى ووخط الشيب رأسى قبل الاوان فى الصراع من أجل تربية الاجيال حقـق الزمن لصاحبتنا أمنيتها ، وأنجبت البنين العشرة الذين كانت تحلم بهم ٠

طرقت الباب على غير ميعاد وكنت موقنة أننى سأجد صاحبتى فى الدار وهل تستطيع أم العشرة أن تغادر المنزل ؟ وكنت موقنة أيضا أننى سأقضى معها أقصر ما يمكن من الوقت ؛ فضجيج الاطفال ومزاج الامهات الولودات لا طاقة

لى بتحملهما • دخلت فتعانقنا حتى كدنا لا ننفصل لولا هجوم الاطفال المباغت وقيامهم حولى بمظاهرة لطيفة من التصفيق والطرب :

ـ « ستى جاتنا •• ستى جاتنا •• عالسلامة ستى •• عالسلامة ستى » •

وقضيت ربع ساعة فى تقبيل الاطفال وملاطفتهم والتعرف على أسمـائهم والتنويه بجمالهم وأدبهم وتوزيع الحلوى عليهم •

وبكلمة لطيفة وإشارة خفيفة أمرت الأم أولادها بأن ينصرفوا الى ما كانوا فيه ؛ فانصرفوا كل الى شغله فى هدوء وألعابهم المسلية هى مشاغل بيتهـم ومساعدة أمهم ، ففيهم من يرتب الاوانى ، وفيهم من يقشر الجلبان ، أو يطوى الثياب ، وفيهم من يمسح البلور وينضد الكراسى ، وفيهم من يقضى الحوائج من البقال القريب •• يا سلام وأمهم تبسم لهم وتشجعهم وتخاطبهم بألقاب التدليل وتوزع عليهم كلمات الحنان والغزل والاعجاب • كنت أتوقع أن اسمع من حين لآخر صرخة هذا أو شكوى هذه أو أن أرى مـلاكمة بين هـذين أو مناقشة حادة بين هاتين •• لكننى لم اسمع شيئا •• لـم يتكسـر أمـامى إناء •• لم تضطر الأم الى الاعتذار عن أية هفوة أو أى تصرف عصبى كنت أتـوقعه •

ووجدت نفسى مع صاحبتى فى المطبخ أقشر البطاطا بينمـا اشتغلت هى بتنظيف السمك وتفويحه لتضعه فى الفرن •• وكنا نشتغل باعداد الطعام ونحن نتذاكر الحكايات ونتبادل الضحكات •

وحضر زوج صديقتى وكنت أراه لاول مـرة ، طويـل القـامة ، عـريض المنكبين ، باسم الثغر ، جم اللطف والمجاملة ، وبعد أن رحـب بى الى درجـة أخجلتنى جلس على كرسى واهتم بتقبيل أولاده العشرة الذين اصطفـوا فى شبه صف منظم ليقدموا له تحياتهم ويسألوه قضاء حاجاتهم ويقدموا بين يديه مشاكلهم يلتمسون حلها •

وفى تلك الاثناء عادت صاحبتى الى المطبخ لتتم إعداد السلاطـة وتنظيـف الغلال وبدأت البنيات الكبيرات فى إعداد المائدة والتردد بين المطبخ وغـرفة الطعام جالبات إناء أو عائدات باناء وأبت الدجاجة التى تكتوى بالنار فى مرقة الجلبان أن تنضج سريعا فاضطرت صاحبتى الى الابطاء علينا بالطعام •

أردت أن أملأ الفراغ بالتحدث مع زوج صديقى فى شؤون التربية والتعليم ، والادب والادباء والمعارك القائمة فى صحفنا حول أشكال القصص ومضامينها والشعر المسمى فى غير العمودى والحر والأصالة والتفتح ٠

وكان محدثى يبتسم من طرف خفى ثم يحول الحديث الى تقدم الصناعات التقليدية فى بلادنا وجمال النقش على الخشب ، وتأثيث الادارات والملايين التى يكسبها من ذلك ، والاصلاحات الجوهرية التى أدخلها على منزله المؤجر فالمهم عنده أن يعيش مع أولاده وزوجته عيشة محترمة هنية ٠ ومن جديد أحول الحوار الى مواضيع الامتحانات ومستوى الطلبة والتلاميذ ، ويحول محدثى الدفة الى المسامير والخشب والبلور والعملة والصفقات ، وأنقذتنا صاحبتى من الاخذ والرد والحوار الغريب بأن أعلنت ان الطعام قد حضر ودعتنا الى المائدة ٠وفى لهجة من المرح والمفاجأة طلب الرجل من زوجته أن تفهمنى بأنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة ، وكدت أفغر فمى عجبا وتسمرت عيناى برسم مطرز على القماش تطريزا بديعا حاكت عليه احدى الفنانات بابرتها راعيا يعزف على مزمار من قصب ، وحوله شياهه البيضاء ترعى العشب ، والسماء زرقاء لماعة ، وطيورها مزوقة الالوان سكرانة ٠ وتذكرت صاحبتى وهى تقول منذ سنين :

ـ « لا يهمنى فى الرجل مقدار العلم الذى يحويه رأسه ، ولا مقدار الفلسفة التى تكيف حياته ، ولا مقدار الجدل الذى ينتصر فيه ٠ المهم عندى أن يكون مملوء رجولة ، ولطفا ، وإنسانية ، وأن يكون قد تخرج من مدرسة الحياة ، وأن يحترمنى فى حب ، وأن يهبنى عشرة أطفال ، وينفق علينا بسعة ٠

يا عجبا كم يظلم الناس الزمن ويرمونه بالتهم ٠٠ وها أنذى أراه يدلل صاحبتى ويستجيب لكل رغباتها ٠

وفى حين كان الرجل مكبا على صحنه يلتهم ما فيه كنت وصاحبتى نتبادل الغمزات ، ونخطط لموضوعنا بأعيننا ٠٠ وبدأنا نلف وندور حول الرجل ونطوقه بحبال التأثر والاقتناع حتى امتلأ إيمانا بالقضية ونطق فى عز القيلولة :

ـ « هيا بنا الى السيارة ٠٠ سآخذكما الى قريبى المثقف الكبير فهو يقدر على فهم هذه الامور وكان النسيم هفهافا طريا ٠٠ وصوت نعمة فى أغنية

« عجبوني عينيه خضر » سحريا أسطوريا عميقا ، والنيران فى داخلى تتأجج ولسانى يجف فى حلقى شيئا فشيئا حتى خفت ان لا أجده عندما أحتاج اليه.

ولكننى وجدته وجادلت به .

وكان السيد الاعلى على درجة من التواضع لم أكن أتخيلها فيه ، وبالتى هى أحسن أفهمنا ما أشكل علينا .

لقد نزل السلام حقا على قلبى واحترقت الثعابين أمام عينى بسحر من البيان والحق ، وما حدث بالامس نسيته اليوم ، وما يحدث اليوم سأنساه غدا .

ف. س. ع.

فى سبيل تربية أصيلة

إن ابتهاجنا بالاستقلال لن يكون كاملا حتى نستقل ثقافيا ونبنى بأيدينا صرح هذا النظام التعليمى التونسى الخالص الذى يضمن لنا طرافة الشخصية ويهيء أسباب بعث الثقافة القومية الخالصة – فلا بد إذن من إعادة النظر فى أصول البرامج حتى ينسجم التعليم مع الواقع التونسى وتتيسر عملية « التأصل » تأصل الاجيال الصاعدة فى بيئتهم وربطهم الى وطنهم بحيث يعطفون عليه ويعتزون به ويستمدون منه .

وليس معنى ذلك أننا ندعو الى التعصب أو نريد ان نعيش فى حدود الوطنية الضيقة منغلقين منكمشين بل نحن نريد بعكس ذلك أن نشارك غيرنا من الامم بقدر الامكان ونمتن علاقاتنا معها جهد المستطاع ؛ إلا أننا نعتقد ان « الأممية » من غير « وطنية » سليمة تطفل وادعاء فلا بد أن تساهم كل أمة بزادها وتفيد غيرها بقدر ما تستفيد هى حتى لا تبقى عالة .

نريد إذن إستقلالا ثقافيا يتمخض – طال الزمن أو قصر عن ثقافة تونسية وادب تونسى طريف ينزلنا المنزلة اللائقة بين الامم .

محمد مزالى

مجلة « الفكر » السنة 2 – العدد 7 – 1957

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجدوب

فى نفس كل أديب وكل فنان حرب قائمة لا هوادة فيها ٠ صراع متصل بين ضدين لا يأتلفان : رغبة جياشة فى الاتصال بالغير والامتزاج بهم الى غاية الاتحاد والفناء ٠ وحرص بالغ على الاستمساك بذاتيته وإثباتها بل وفرضها ــ كما هى ــ بمميزاتها وشذوذها كأنها حمى مقدس دونه مسافة حرام تعصمه من كل فضول وابتذال ٠

كذا يكو نمترددا مقسما بين العزلة والوصال ، بين الوحدة والجماعة ويعيشها « جدلية » مضنية خلاقة ٠ فهو هو «الارستقراطى» المعتز بأصالته وامتيازه وهو هو « ابن الشعب » يتوق توقا الى الشركة والشياع والمجانسة والوئام ٠

* * *

ليست الكلمات هى التى تؤلف الجملة عند الكاتب الفنان بل الجملة هى التى تخلق الكلمات ٠

* * *

لكل منا وجهان ظاهر وباطن غير ان الباطن « معدل » وجوه ٠٠٠ خلاصة صور متحركة متحولة بدونها لا يتم تفاهم ولا تعاطف ولا انسجام ٠

* * *

قد تنبعث الصداقة بعد توقف وفتور أما الحب فهو يموت ــ ككل كائن حى ــ اذا لم يطرد نموه لأنه ألصق بالحس وأدخل فى الطبيعة ٠

* * *

حاجة الفرد الى الجماعة كحاجة السمك الى الماء ٠

الشكر قرين اللذة حتى كأنه جزء منها وبعض من جوهرها ٠ كذا السخط لا يكاد ينفصل عن الألم صدى له ملازما ٠

* * *

الشارع والسوق والمعمل كل ذلك بيتنا المشترك اذا لم نأنس إليه ولم نرض عما يجرى فيه فان نعيم بيتنا الخاص لذة زائفة حرام ٠٠٠ ضرب من الأفيون تذوى به الذات وتنتحر ٠

* * *

ويل لأمة ينظر إليها العدو جبهة واحدة ، كتلة متراصة وهى طوائف شتى يهدم بعضها بعضا ٠

* * *

الانسانية أصلا منزلة شاذة ، صراع دائم من أجل أن تكون ، وضع مهدد أبدا بالتهافت والانفصام ٠

* * *

كل منا فنان فى أحلامه ولا فضل له فى إبداعه ٠

* * *

الاحلام جاسوس منا علينا ٠٠٠ رقيب عابث يهول تارة ويزين أخرى ٠

* * *

الاحلام جسر متحرك متردد بين اليقظة والنوم ٠

* * *

فى كل شاعر حتما رسام وموسيقار وقد لا يذوق الموسيقى ولا يفهم الرسم ٠

بالشعر (1) يتم للوجود طابعه ومذاقه .

الشعر عنصر « الهارمونى » (2) فى صوت الوجود .

خلق الحيوان شقيقا للانسان ضدا ... جارا له مزعجا ، صورة منه مسخا تفضح أخفى أسراره وعيوبه .

* * *

الحياة لا تميز بين السطوح والأعماق ولا تؤثر اللب على القشور لانها كل ذلك .

ليس الجمال شكلا باطلا أو طيفا زائلا . إنه دعامة الحياة وبعض من معنى الوجود .

الجمال عتبة الغيب .

* * *

من الحمق أن ييئس اليوم بعض كتاب العرب من الأدب ويقولوا بافلاس الكلمة وضآلتها تجاه قوة الحديد والنار . ففى الكلمة قوة لا تقل عن قوة السلاح ... قوة تشد كيان الشعب أجمع لا القلوب التى تحمل السلاح فحسب . يسكت السلاح أما الكلمة فتبقى مترددة عبر الآفاق تزرع الحياة على الدهر . وهل من معنى للحرب اذا لم تكن غايتها السلم ؟ !

* * *

ما رأيت أروع من شجاعة فلاح يحرث أرضه وادعا مطمئنا عند سفح بركان يهدد دوما بالانفجار . لهو أبلغ رمز لكفاح الانسان الصامد الكابى المنبعث المستجد على مر العصور .

---

(1) الشعر من حيث هو « حال » .

(2) من المعلوم أن الصوت يتألف من عنصر أساسى وعناصر فرعية تدعى (Harmoniques) بها يتميز الصوت ويتعين طابعه (Timbre) .

عجبا ! كيف يتعايش الناس ويتآلفون وما من أحد إلا فيه جانب من السخف يدعو الى التندر والتهكم أو الزهد والنفور ! ؟

* * *

يعيش الناس ويأبى الكاتب ـ لعاهة فيه ـ إلا أن يتصيد ـ رشقا بالقلم ـ صور الحياة وظلالها شأن هواة جمع الحشرات على أنه ما يكاد يحبس الحياة حينا حتى يطلقها الى الأبد ٠

* * *

فى جمال الحيوان روعة هى روعة الجمال الصرف الذى يجهل ذاته ٠

* * *

من الأنس والبشاشة ما يفضى الى الحرج والخيبة ٠

قد نستلذ الفكاهة الخفيفة السطحية عند مشاهدة شريط أو ملهاة ـ أو فى محفل ـ وننبسط لها الى غاية الارتياح والانشراح ولكن ما نكاد نخلو الى نفوسنا حتى نشعر بالنقص والخواء والطيش والسخف قد خرجنا من مجلسنا أفقر مما كنا وأجوع ٠

* * *

الاشجار ، على صمتها وسكونها ، أبلغ تعبيرا وأغزر حياة من الحيوان فى نشاطه وثرثرته ٠

* * *

رب شجرة هى فى عين الرسام ورقة أو زهرة عملاقة ٠

* * *

الفن ذاك الأسير الطليق ٠٠٠ حرية محض رغم القيود والحدود !

* * *

محنة الانسان وعظمته أنه خلق ناقصا ·

ليس الانسان إلا « مشروعا » ··· مجرد صورة تدور حول ذاتها وتبحث دوما عن معناها ··· صورة مفتوحة على الغيب من جميع نواحيها ·

أما الحيوان فكائن سوى تام قد بلغ بدءا غايته ومنتهاه ·

* * *

لا نصل الى القليل من الفهم والتجربة إلا بعد الكثير من الألم والشقاء وتحطم القوى فاذا بنا نتساءل عن جدوى هذه الحكمة الباهظة العاطلة ·

ب· م·

« ··· أحس الشباب التونسي « **بفراغ إيديولوجي** » لا يمكن أن يسده الفعل ولا أن يملأه الدأب والعمل ··· وهو في مواكبته لمقتضيات عصرنا وفي حرصه على أن يوجد معنى لحياته وحياة شعبه بين الامم ، يبحث ويدأب في البحث حتى يسد هذا «**الفراغ المذهبي**» بالاستناد الى ما يجد من أصالة نبضات الحياة فيه وفي قومه ···

··· فحري بالشباب الذي تفتح الى العالم بما فيه من فلسفات ونظريات وعب منها ما شاء له ، ثم رجع الى قومه يبحث عن أصالته أن يحيى هذا العنصر المتمثل في انتسابه الى الاسلام والذي هو من مقومات وجوده ، وان يلقى عليه الاضواء الكافية حتى يتألق ويناله من ألوان التطعيم والتشذيب ما يجعله قادرا على أن يساهم في سد هذا « **الفراغ المذهبي** » لا بالنسبة له فحسب بل بالنسبة للبشرية جمعاء » ·

البشير بن سلامة

مجلة « الفكر » السنة II ــ العدد 9

جوان 1966

عـاصفـة :

أنا لا تضيقي بحبي فلقبي
رماد بداد وحبـي ادعـاء
« أغنية إلى عروس »

(جعفر ماجد)

قصة ، بقلم : يوسف الخناشي

تقول الأغنية :

لا تفارقني ٠٠ دعني أصبح ظلك ، ظل كلبك ، لا تفارقني ٠٠٠٠
....

أسندت رأسي الى النافذة وبقيت أحدق الى رصيف الشارع المبلـل هـذا المساء من المطر ٠٠ الرصيف خال من المارة والضباب الزاحف حذو النافذة يغرق الفضاء في لون ضبابي قاتم ٠٠ كان الرصيف خاليا من المارة وكنت قد أسندت رأسي الى النافذة ٠٠ ومر قط أسود ٠٠ القط يتـوقف بجـانب الرصيف ملتصقا بجدار متهرىء ، تجمد في مكانه وانتصب منصتا في انتباه وحيرة ٠٠ في هذه اللحظة عاد المطر ينقر على النافذة ، وتقدم القط الى الأمام واستقامت أذناه ٠٠٠ لو توقف دوران الارض ؟؟٠٠ لو انطفأت الشمس فجأة ماذا سيحدث ؟ ماذا سيحدث ؟٠٠ عندما دخلت حديقة الحيوانات مساء الاحد الفارط لاحظت أزدحاما على الدخول٠٠٠ واستطعت أن أقتني تذكرة وأدخل٠٠ قضيت ثلاث ساعات أتجول في الحديقة ٠٠ في آخر لحظة تـوقفت أمام قفص يحوى قردا ٠٠ كان القرد يرقص أمام الجمهور ٠٠ وكان الضحك لا ينقطع ٠٠ القرد يرقص أمام الجمهور والسماء زرقاء زرقاء ، والطيور محلقة في الفضاء٠٠ لو توقف دوران الارض ؟٠٠ لو انفجرت الارض ؟ هل سيرقص القرد ويضحك الجمهور ؟٠٠ رأسي مستند الى زجاج النافذة الذى بـدأ يبـرد ويتكاثف عليه الضباب ٠٠ والقط ملتصق بالجدار ، لم يغير هيأته ، وبقيت عيناه تحدقـان الى الفراغ الذى يتخلله الرذاذ ٠٠ رجل يمر ملتفا في معطفه ، كاد أن يدوس القط ٠٠ كاد أن يدوس القط ٠٠ أنا عندما التقيت بك لم أكن أتوقـع أنك

ستغادرين المنزل ذات صباح ولن تعودى ٠٠ حدثتك عن الطرق المؤدية الى البحر من كل صوب وعلمتك الحنان وضممتك الى جيدا فى ليالى الشتاء الباردة ولهثنا فى غمرة الحزن وكانت الاغنية تقول :

لا تفارقنى ٠٠ دعنى أصبح ظلك ، ظل كلبك ، لا تفارقنى ٠٠٠٠

وفى المركب المتهادىء عبر البحر أشرت اليك أن تنظرى الى نقطة سوداء فى السماء وعند ذلك ٠٠٠ عند ذلك حدث يا حبيبتى ٠٠ حدث أن قفز القط فجأة من تحت الجدار فخفت وفزعت وهرعت الى ركن الغرفة وجثمت أصيح ، أصيح ٠٠ أسد أذنى وأشد رأسى بيدى لكى أصد الأزيز وصخب الجبال ، وفيضان المياه من كل صوب ٠٠ إلا أن ٠٠٠ إلا أن جارتى قوت فى هذه اللحظة من مذياعها فتسرب الى غرفتى لحن هادىء ، بدأ يغمرنى شيئا فشيئا فتنفست الصعداء وعاد السكون الى وانتبهت الى أن الدموع انسابت على خدودى ٠ مسحتها وحاولت أن أقف ٠٠ وقفت بعد اجهاد ٠٠ واتجهت صوب النافذة إلا أننى تسمرت فجأة فى مكانى وخفت من النافذة ٠٠ ومن القط ٠٠ القط الذى عرف نهاية الحلم ٠٠ وهى بالجانب المقابل له من الرصيف ٠٠ إنى لن أشاهد القط مرة أخرى ٠٠ لن أشاهد القط ٠٠ سأكتفى بمجموعة صور الحيوانات ولن أذهب الى حديقة الحيوانات مرة أخرى ٠٠٠

ــ ومع ذلك قلت لك إن الحبيبين يعيشان دائما هنا فى الحديقة المزهرة ٠٠٠

ــ أجل إلا أن العشيق غير مبال بها ٠٠٠

ــ أنظرى ، هذه ذكريات المرأة مع زوجها تعود ٠٠ ها هى تعود ثائرة حاقدة ٠٠ إنها تجرى معه على الشاطىء ٠٠٠

ــ أف ٠٠ دعنا منها ٠٠ إنها خائنة ! خائنة !٠٠ أرجوك مد يدك ٠٠ مد يدك إلى ٠٠ إنى أحس بالبرودة ٠٠٠

ــ هذه يدى لا تضغطى بالقوة ٠٠ هذا موقف حب ٠٠ أنظرى ٠٠٠

ــ أف ٠٠ إنى نسيت أن أقتنى لك ما تعودته من مرطبات اليوم ٠٠

ــ لحظة عناق ٠٠ أنظرى ٠٠ لحظة عناق ٠٠٠

يجب أن أغادر مكانى ٠٠ أن أمس شيئا ٠٠ هذه قصة اشتريتها منذ الاسبوع الفارط ٠ لو أشرع فى قراءتها ٠٠ سأقرؤها الآن ٠٠ الاسلوب

مؤثر وجذاب ٠٠ آه ٠٠ إنى فى حاجة الى الراحة ٠٠ فى حاجة الى الراحة ٠٠ لو استمع الى الموسيقى ؟٠٠

تقول الأغنية :

لا تفارقنى ، دعنى أصبح ظلك ، ظل كلبك ، لا تفارقنى٠٠٠ لا تفارقنى٠٠٠

صوت المغنية الحزينة كثقل العالم على صدرى الهزيل ، دموعها تمزق جسمى ٠٠ والصحراء ٠٠ شاسعة هى الصحراء برمالها وشمسها المتوهجة وأنا وأنت نتقدم ، نتقدم فى بطء ٠٠ الصحراء شاسعة يا حبيبتى ٠٠ أرجوك مدى يديك ٠٠ مديها ٠٠ إنى ٠٠ إنى أغوص ، أذوب ، أتلاشى فى عالم الصحراء الحارة ٠٠٠

تقول الأغنية :

لا تفارقنى ٠٠ دعنى أصبح ظلك ، ظل كلبك ، لا تفارقنى ٠٠٠٠

لو تتوقف الارض عن الدوران ؟ لو تنفجر الشمس ؟ لو **يضحك القط** ؟ لو **يبكى ؟ ماذا** سيحدث ؟ **ماذا سيحدث** ٠٠؟ هل تتوقف **المغنية الزنجية عن الغناء** ؟ هل سيضيع اللحن المرتعش ٠٠؟ أزيز سيارات ، صراخ ، **تصفيق** ، اقترب من النافذة وأنظر ٠٠ هذا بدون شك رجل مهم **يمر فى الطريق** ٠٠ الناس **يصطفون** على الرصيف ، النوافذ تفتح ، الوجوه مكفهرة ، **تصفيق حاد** ، الرجل المهم يمر ٠٠ وأعود الى ركن الغرفة ٠٠ أجل سأصمت ما **دمت لم أجد** حلا لهذا اليوم ٠٠ سأصمت فى هذا المكان ٠٠ ولكن صوت جارتى يرتفع من جديد ٠٠ إنها تصرخ ٠٠ قمت وفتحت الباب قليلا ٠٠ كانت جارتى غاضبة على زوجها :

إننى أعدت عليك ألف مرة بأن تشترى بيضا ولا حليبا ! أف يا حظى ! إنه دائما ينسى ٠٠٠

هرول الزوج نازلا الدرج بسرعة ، مطأطأ الرأس : اكتشفت جارتى عينى خلف الباب ، ابتسمت وقالت :

ـ مساء الخير ٠٠ كيف حالك ؟ لماذا **لا تزورنا فى البيت** ؟٠٠ **إن وقت فراغك** يناسب ـ كما لاحظت ـ وقت عمل زوجى ؟ هل تتفضل **غدا بشرب الشاى** ؟؟٠٠

بماذا أجيبها ؟ ماذا أقول ؟ إنى أحاول أن أبتسم ٠٠ ها هى أجفانها ترتعش ٠٠ إنها تتوسل منى تلبية دعوتها ٠٠ أشفقت عليها ٠٠ قرأت الدموع خلفها ٠٠ قرأت الحرمان والبرودة والصحراء الشاسعة ٠٠ ابتسمت وقلت بصوت ضعيف :

شكرا سآتى ٠٠ سآتى ذات يوم ٠٠ ربما ٠٠٠

وأغلقت الباب ٠٠ مهول رواق المنزل ، عميق كمجاز دهليز بحرى يؤدى الى كل الدنيا ٠٠ انتظرت فى الصيف ٠٠ تذكرى ، فى الصيف ، وكنت على موعد مع زرقة السماء ، وعندما ٠٠ عندما نسيت أننى أحببتك ٠٠ عندها عدت الى البيت وجثمت فى هذا الركن ٠٠ أما أنت فقد انطلقت نحو المروج الخضراء ٠٠ وبقيت وحيدا أتمشى فى الشارع الطويل ذات مساء متثائب ٠٠ ومن يومها ٠٠ تصورى من يومها صرت أترصد القط من النافذة وأترصد حركة الارض وأشعة الشمس وأخاف من رحلة الليل ٠٠ لأنه لو توقفت الارض ؟ لو انطفأت الشمس ؟ لو انقطع الهواء ؟ ماذا سيحدث ؟ ماذا سيحدث ؟٠٠٠ هل ٠٠ هل تحبيننى ؟٠٠٠

وتقول الأغنية :

لا تفارقنى ٠٠ دعنى أصبح ظلك ، ظل كلبك ، لا تفارقنى ٠٠٠٠
....

إن الأرض تدور دائما ٠

يوسف الخناشى

---

(1) أقصد بالأغنية : أغنية « نينا سيمون » «NINA SIMONE» « لا تفارقنى »
«Ne me quitte pas»

ابن رشيق وابن شرف واتجاهاتهما الشعرية

بقلم : علي دب

١ ـ ممارسة الشعر والنقد :

قال ابن خلدون في مقدمته « ما كان بافريقية من الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف » هذا الحكم من مؤرخ المغرب العربي وعالمه الاجتماعي ان كان خير شاهد على مكانة ابن رشيق وابن شرف الشعرية فهو حكم عاطفي عام تعوزه الموضوعية ويمليه التعصب لان ابن خلدون لم يدرس الشاعرين دراسة ناقد هدفه التقييم ولم يقارن بينهما وبين بقية شعراء القطر فكيف تأتى له هذا الحكم الصارم . لاشك ان هذا الحكم كغيره من احكام العرب الاوائل : فلان أشعر الناس وهذا البيت أغزل بيت قالته العرب أو أمدح بيت ...

أما الميزة التي اختص بها ابن شرف وابن رشيق فممارستهما العملية للنقد والشعر معا وهذا نادرا ما يحدث في الادب . وقد تعاطيا النقد المنهجي الخاضع للاساليب العلمية فألفا التآليف التي ما زالت مرجع النقاد رغم تقادم العصر « كالعمدة » كتاب النقد العربي الاول الذي أقيم على أسس متينة دلت على مكانة ابن رشيق في هذا الميدان و « رسائل الانتقاد » التي تعرض فيها ابن شرف لقضايا نقدية هامة .

وبنظرة عامة على مفهومها الشعري ندرك مدى وعي هذين الشاعرين ومدى احساسهما بالرسالة الشعرية . فالشعر عند ابن رشيق عملية توازن بين اللفظ والمعنى وهما الاساسان الاصيلان للجودة « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد يضعف بضعفه ويقوى بقوته فاذا سلم المعنى واختل اللفظ كان نقصا في الشعر ... وكذلك اذا ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ (١) ... »

---

(١) ـ العمدة ...

ولم يتجاوز ابن شرف هذا المعنى حين قال : « ومن الشعر ما يملا لفظه السامع فلا يرعك شماخة مبناه وأنظر الى ما فى سكنـاه فان كان فى البيت ساكن فتلك هي المحاسن وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ... والمعانى هى الارواح والالفاظ هى الاشباح (١) ... »

هذا الاتفاق ليس غريبا على الشاعرين وأفكارهمـا المتشابـه دليـل على تشبعهما بالفكرة وايمانهما بالهدف ولا تغرنا الخصومة المفتعلة بينهما والعداوة التقليدية المبالـغ فيهـا .

وهذا التلاقى فى المقاييس النقدية دليل على طول ممارستهمـا الجماعيـة لعملية النقد والفهم والمصاحبة . وهذه الموازنة المتطابقة بين الشاعرين مرآة تعكس ذوق العصر ورد حاسم على دعاة التفرقة العنصرية بين اللفظ والمعنى .

فقد مر الادب العربى بعدة أزمات تعرض خلالها الى اضطهاد وعسف من المتأدبين أصحاب الاهواء والمطامع الذين يزعمون امكانية قيام الادب على عنصر واحد أما لفظ أو معنى . فالجرجانى يدعى أن الادب الفاظ متى اختل توازنها فسد معناها وأصحاب المقامات صرفوا أعمارهم فى اصطياد الزخارف الكلامية وفراغ الكلمات الجوفاء وفهموا الادب على أنه براعة لفظية وتسابقوا فى خطب ليس فى حروفها نقاط أو ألفاظ لا تستحيل بالانعكاس . وهاتـه القواقع البلاغية ما هى الا ترسب الانحطاط العقل وتكلس الاذهان وبوتقة الافلاس الادبى ومحاربة جماعية للمواهب البكر والنزعات التجديدية .

ومن المدارس الادبية مـن يغلب المعنى على اللفظ ويدعى أن دور الالفاظ ثانوى ضئيل وأمام هذا التضارب أصر فريق ثالث على مساندة اللفظ للمعنى وقالوا ان التفريق بينهما ضرب من العبث . ومن كلام ابن رشيق وابن شرف يظهر أنهما من هذه المدرسة التوفيقية التى فهمت الادب فهما واعيا عميقا ولم تنحدر فى مزالق المهاترات وضباب الخلاف التافه بل دعت الى التعايش السلمى الفعال بين اللفظ والمعنى ولايمانهما المطلق بهذين العنصرين اصرا على ان « الالفاظ هى الاشباح والمعانى هى الارواح » وبديهى أن الجسم بلا روح كتلة من اللحم يتسابق اليها التعفن والروح بلا جسم حلم هائم فى دنيا الخيال لا يعيش لحظة الواقع الجدير بالبقـاء .

---

(١) ـ رسائل الانتقاد ص : 24 .

كانت هذه المقاييس النقدية أمام الشاعرين وهما وسط التجربة الشعرية المبهرة والخلق الادبى الذى يعيشه الفنـان ٠

2 ـ الجانب العاطفى والوجدانى فى حيـاة الشاعريـن

المرأة كـانت ولا تزال محور الالتقـاء بين الشعراء والفنانين وان اختلفت موازين العصر ٠ فالمرأة القديمة مثلا تمثل أمام الشاعر الاناء المترع باللـذة والثمرة الناضجة المتدلية تلفت الانظار وتسيل اللعاب ٠ والمرأة أمام الشاعر الجاهلى جسد يتدفق انوثة وشهوة بينما المرأة عند الشاعر الحديث نافذة يطل منها على مشاكل العالم وآلامه ومآسيه ٠ هكذا قدر للمرأة أن تكون نواة الالتقاء بين الشعراء قديما وحديثا ٠ أما المرأة عند هذين الشاعرين فقد تباينت حسب مفهوم كل واحد منهما فابن شرف نظر اليها نظرة شهوة لا تبعد عن نظـرة الجاهلى متعة يلجأ اليها الرجل بعد الجهد الطويل والمسافات الممتدة كحانات البحارة تعب فيها الكؤوس وليست مرفأ أمان يهتدى به البحار وسط الظلمة وقسوة الامواج الى ساحل الامان وكثيرا ما قرن ابن شرف المرأة بالخمرة وجمع بينهما فى قصيدة واحدة أو بالاحرى فوق مائدة واحدة ٠ وهذا دليل آخر على أن الشاعر كان ينظر اليها نظرة اشبـاع غريزة جائعـة للجنس لا نظرة متامل مستوح ولعل لقاءه بالمرأة كان فى الجلسات العامة حيث يباح الخمر والجوارى والساقيات وبائعات الهوى ٠

والكـاس كاسيـه القميص كأنهـا　　قـدرا وكفـا معصم مخضـــوب
منى اليـه ومـن يـديـه الى يــدى　　فـالشمس تطلـع بيننـا وتغيب (1)

ولا يستنكف ابن شرف من ذكر المضاجعة والفراش فيتحدث عـن هاتـه العملية بصراحة ووضوح ولعل فى هذا دليـل آخر على ابتـذال عشيقاتـه وشيوعهن وحتى هذا الحديث الذى رواه ليس فيه حرارة العاشق ولهفة المحب وانما يحكى لنا عملية وقعت مجرد خبر يرويه الشاعر مثلما يروى كل الاخبار العادية التى تصادفه فى حياته اليومية منادمة صاخبة تعقبها مضاجعة دافئـة وفتـور مقـرف ٠

يسعــدك وابـل امـع فـى اربـع　　شربت ميـاه الـدمـع شرب الهيـم
ايـــام شمس المشرقين ضجيعتـــى　　فيهـا وبـدر المغـربين نـديمى (2)

(1) ـ النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ص 92 ٠
(2) ـ الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة القسم الرابع ج 1 ص 130 ٠

وحتى وصفه للمرأة فهو ينصب على المفاتن المشهية التى تكمن عندها مواطن اللذة او التى تكبر هاته المواطن ٠ فابتسامتها عن ثغر واضح مثل زهر الروض وصف يعيد لنا اجترار الجاهليين لهاته الانماط وقديما قال طرفة :

وتبسم عن المى كان منورا تخلل حر الرمل دعص له ند

فهل ترى فرقا بين معانى هذا الجاهلى ومعنى ابن شرف ؟ :

تلفتت عن طلا وسنان وابتسمت عن واضح مثل نور الروضة العطر (1)

أما المرأة عند ابن رشيق فتبدو أحسن حالا من امرأة صديقة لعلها كانت أقرب لقلبه والصق بعواطفه ووجدانه ٠ ورغم التشابه فى تقليد الجاهليين فان الانسياب الموسيقى والروعة اللفظية أطرف منها لدى زميله ٠

بين أجفـــانـــك سحـــر ولاغصـــانـــك بـــدر
جــردت عينــــاك سيفيـــ ـــن لـــدا امـــرك امـــر
فعـــلى خـديـــك مـــن نـز ف دم العشـــاق أثـــر (2)

وفى شعر ابن رشيــق شكــوى وانين متقطع لا يعلــل الا بصدق المحب واخلاصه والمحب الصادق كثير الشكوى كثير التحدث عن العواطف والوعود والاتهامات اما المتصيد قانص المتعة فلا تؤثر فيه المواعيد الزائفة ولا يلتفت الى ضياعها لانها تضر بمصلحة الطرفين معا وكلاهما طالب متعة مشبع غريزة أو جامــع مـــال ٠

وشعر ابن رشيق الغزلى يميل الى التامل وفلسفة المعانى وتظهر فى سماته وطاة الحب على جسم الشاعر المضنى :

وقائلة ماذا الشحـوب وذا الضنى ؟ فقلت لهـا قـــول المشـــوق المتيـم
هـــواك اتـــانى وهـــو ضيـــف اعـــزه فاطعمته لحمـــى وأسقيتـــه دمـــى (3)

---

(1) ــ رسائل الانتقاد ص 9 ٠

(2) ــ النتف ص 30 ٠

(3) ــ بساط العقيق ص 102 ٠

فالبيت الاول أقل قيمة من الثاني وكان تمهيدا لهذا الاخير فجاء مفتعلا باردا أفسده تكرار الاشارة « ذا » وهذا العجز المجوج : فقلت لها قول المشوق المتيم كلام عادى لا تشدنا اليه حرارة الشعر ولا صفاء اللفظ ولا رونق الفن الناتج عن طول المعاناة • ووصف طيف الحبيب دليل آخر على صدق المحب لانه يبعدنا عن الشهوة والمادية ويقربنا من الصوفية الصادقة والقلق الذى يشيع فى غزل ابن رشيق نوعا من التأزم النفسى حوله الى زفرات حرى تشعل اعصابه وتنطلق منه تنهدات لاهبة لعلها اشبهت الغاز المندلع من الارض لا يحتاج الا الى عود كبريت ليشتد ضرامه واواره تلك هى انفاس الشاعر المحب المحزون :

ان كنت تنكر ما منك ابتليت به   فان برء سقامى عز مطلبه
اشر بعود من الكبريت نحو فمى   وانظر الى زفراتى كيف تلهبه

والتاملات الفكرية التى تشيع فى شعر ابن رشيق الغزلى تدلنا على وعى الشاعر الحساس للعوامل التى حركت وجدانه فعبر عن تأثير هذا الحب فى جسمه • وتقرب معانيه فى هذا المضمار من معانى « الخيام » احساس بالتعاسة والضيق فى عالم تسوده المقاييس والانماط البشرية المتعارفة ذات المسار الرتيب ويميل الفنان فيه الى الاعتزال ويشعر برغبة قوية لتفسير المسلمات تفسيرا جديدا يتماشى مع روح الفن المتحرر لا تضيق انفاسه الاساطير والخرافات :

سالت الارض لم جعلت مصلى   وتربها لنورى طهرا وطيبا
فقالت غير ناطقة لانى   ضممت لكل انسان حبيبا (1)

والخيط الرقيق الرابط بين الخيام وشاعرنا هذا الكفر الذكى وهذا التفلسف الطريف فى تعليل الحوادث الكونية وهو ما عبر عنه البلغاء بحسن التعليل • فطهارة الارض عند الشاعر ليست لعبادة الله فقط كما يعللها رجل الدين بل لان الارض تضم كل الاحباب على مر العصور لذلك وجب تقديسها ولثمها فى كل صلاة •

وتلح الهواجس على ابن رشيق فيحاول الزيغان على الدين حين يرى فتاة

---

(1) — بساط العقيق ص 113 •

نصرانية فيخامره احساس غريب وتقفز فى ذهنه مقارنة سريعة بين هذا الجمال المشاهد المرئى وبين الحوريات اللائى تفيض الكتب الدينية فى وصف جمالهن ولعل الشاعر ردد مع الوجوديين والواقعيين ـ القول المأثور : « عصفور فى اليد ولا عشرة فوق الشجرة » :

فتون عينيك تنهانى وتأمرنى ... وورد خديك يغرى بى ويغرينى
اما لئن بعت دينى واشتريت به ... دنيا لما بعت فيك الدين بالدون
استغفر الله لا والله ما نفعت ... فى سحر مقلته آيات ياسين (I)

ويختم ابياته بهاته العفوية المغرية انزلاق نحو الكفر واستدراك ذكى فى البيت الاخير فقال استغفر الله بعد ان شعر بالزلل الذى هو نتيجة حتمية لمفعول الجمال او لوقع هذا الجمال على نفس الشاعر لم تفلح فى تطمينه حتى ايات « ياسين » التى يزعم المشعوذون انها تلين قلوب العذارى وفى البيت الاخير استغلال جميل للاساطير الدينية سجل لنا الشاعر عادة من عادات ذلك العصر السحيق تتمثل فى سيطرة السحر والشعوذة على عقول الناس وسورة ياسين عند العامة لازالت الى اليوم تسخر فى قضايا جنسية رخيصة وبهاته الآيات يدعى المدعون امكانية ربط الانثى بالذكر ٠

ختاما لهاته الظاهرة ظاهرة المرأة فى حياة الشاعرين يبدو ان ابن رشيق أمهر من زميله فى هذا الميدان ولعله كان أكثر حبا واخلاصا فجاء شعره الغزلى قريبا لاذواقنا واذهاننا ٠

3 ـ الهزل أطرف هوايات الشاعرين

الياس يفضى الى الهزل وصراع الحياة الجائر يقابل بابتسامات ساخرة والنماذج البشرية المنافقة تعرى من زيفها وتلصق صورها الساخرة فى الاندية والشوارع وتعرض على المارة لتمطط أفواهها وتشبع غريزة الضحك ٠٠٠ قضايا مضحكة كانت فى حياة الشعراء استراحة ٠ قهقهات سماها الاقدمون هجاء واسميها عند هذين الشاعرين هزلا لاختلاف المناخ والظروف ٠

(I) ـ حوليات الجامعة التونسية عدد 6 ص 74 ٠

والهجاء وجه هزلي لا يقصد لذاته ولا اتصور شاعرا يحترم فنه ينصب نفسه هجاء تتحاشاه الناس وتتخطاه الاعين ٠

والهجاء عند العرب سار في اتجاهين كبيرين ٠

1 ـ قسم يشين الشعراء لأنهم بالغوا في السباب والشتائم كبشار والحطيئة ٠

2 ـ قسم سياسي ولكنه مال للسب وأنا أفضل أن أسمي هذا النوع هزلا لإن الشاعر في سبيل الدفاع عن حزبه يلجأ الى مس الاعراض لتشويه الفكرة التي يرفع شعاراتها سياسيون او دعاة يدورون في فلك الاحزاب السياسية ومن أقدم ما عرفه الشعر العربي من هذا الصنف جرير والفرزدق والاخطل فقد غذتهم العصبية وفرقت بينهم الاحقاد وصادفوا فراغا سياسيا بعد خروج المسلمين من الفتنة الكبرى فاحتاجوا الى ساعات ترفيه فكانوا يتوافدون على الجلسات العلمية المفتوحة وحلبات الصراع بين الشعراء وشجع الامويون هذا النوع لانه أجدى وسيلة لامتصاص النقمة الجماهيرية التي كانت ترى فيهم مغتصبين للسلطة بدون مسوغ شرعي اللهم الا قميص عثمان الذي صار مثلا يضرب في النفاق والدهاء السياسي ٠

اذا فجرير والفرزدق والاخطل لم يكونوا هجائين ولكنهم كانوا شعراء هزليين شغلوا المسرح الهزلي فترة تقرب من أربعين سنة ٠

وهذا الصنف ينضوي تحته ابن رشيق وابن شرف فالمهاجاة التي وقعت بينهما ليست عقائدية او عرقية بقدر ما كانت فقاقيع لملء الفراغ وتسلية الامراء وأرباب السلطان ٠ والتنافس بينهما غذاه قربهما من المعز بن باديس الصنهاجي فبدأ يجس النبض للتأكد من مكانتهما او لمعرفة وزن كل منافس في هذه الحلبة اذ « خصص المعز لنفسه ابن رشيق وابن شرف فكان يلتفت تارة الى هذا وتارة الى ذاك فجرى بينهما تنافس وتحاسد وانتجا مناقضات ومهاجاة لم يصل الينا منها شيء » (1) ٠

اذن العداوة كانت مفتعلة او بالاحرى كان تنافس شريف في ميدان العمل ايهما يجيد عمله فيحوز رضا الامير واعجاب الحاشية ويفوز بالغنيمة وحده

(1) ـ رسائل الانتقاد ص 4 ٠

وكان هدف كل منهما الاجادة والابداع · وتقديم المعز لاحدهما عملية اغـراء بالآخر ، واستفزاز من الامير للمغلوب والغالب فيشعر المتقدم بالمباهاة ويحاول المحافظة على الصدارة ويشعر المؤخر بالاهانة ويصر على ارجاع مكانته واثبات وجوده وهذه العملية هى التى قصدها المعز عملية تنافس شريف لتنشيط الادب وتلهية الجماهير يقول « **الميمنى** » فى معرض الحديث عن ابن رشيـق : « شغل المحافل الادبية وقامت بينه وبين ابن شرف مساجلات أثرت الرسائل العربية ومن أسماء رسائله فى هذا الباب رسالة قطع الانفاس ورسالة دفـع الاشكال ورفع المحال ورسالة ساجـور الكلب · ونقـد الـرسالة الشعـوذية والقصيدة الدعية » (1) ·

والمعز يعتبر من خيرة الامراء الذين تولوا افريقية كان أديبا عالما وصفه حسن حسنى عبد الوهاب بأنه « حديد الذهن عارف بعدة صنائع من الالحان والتوقيعات وعلم الاحجار يقول الشعر الجيد على البديهة نقاد له » (2) ·

ولعل هاته الحادثة التى رواها ابن شرف تصور لنـا اشتغال المعز بالادب واعتناءه بالنهضة الشعرية قال ابن شرف : « استخلانا المعز يوما وقال أريد أن تصنعا شعرا تمدحان فيه الشعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء فانى أستحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضا به وكلهن قارئات كاتبات فاحب أن أريهن وادعى أنه قديم أحتج به على من عابه وأسر به مـن عيب عليه ··· فانفرد كل منا (ابن رشيق وابن شرف) وصنعنا فى الوقت فكان الـذى قلت :

وبلقيسيـــــة زيـت بشعــــر يسير مثلمـــا يهـب السحيـم

....

وقـال ابـن رشيـق :

يعيبـون بلقيسيـــة أن رأوا بهـــا كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا

فأنتقد المعز ابن رشيق قوله يعيبون وقال لقد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه وهذا النقد ما فطنت اليه » (3) ·

---

(1) ـ الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ص 279 والنتف ص 3 ·
(2) ـ بساط العقيق ص 75 ·
(3) ـ ابكار الافكار على ما فى بدائع البدائية ج 1 ص 222 ·

وهذه الرواية على بساطتها وعفويتها تسجل لنا عدة حقائق هى علامات على الطريق الى ذلك العصر ٠

١ ـ شغف المعز بالادب وحرصه على تنشيط الشعر خاصة ٠

٢ ـ فهمه ووعيه للشعر هذا الوعى وصل الى درجة النقد والتمحيص ٠

٣ ـ اشتراك الشعراء وخاصة ابن رشيق وابن شرف لشؤون الامير فى زوايا القصر ومصارحتهما حتى بسوء التفاهم الذى يقع يوميا بين نسائه ٠ معنى هذا ان للشاعرين مكانة كبيرة ٠

٤ ـ هذا النص يشير الى ثقافة المرأة ٠

أ ـ ثقافتها الشعرية واعتناؤها بالادب وتأثير الشعر خاصة على حياتها الداخلية ٠

ب ـ النص يؤكد لنا ان نساء المعز بن باديس كلهن قارئات كاتبات ولا شك ان مثيلاتهن كثيرات فى بيئة الشاعرين ٠

٥ ـ تؤكد لنا هذه الفقرات تأثير الشعر فى حياة الناس وهو امتداد لتأثيره القديم الذى صاحب الانسان العربى فى سلمه وحربه ٠

٦ ـ يشير كذلك عرضا الى سيطرة النزعة القديمة فى المقاييس النقدية فالقديم محبذ دائما والجديد يقابل بتحفظ وفتور ٠

٧ ـ هذه الرواية المقتضبة تبين لنا مدى اتصال الشاعرين بعضهما ببعض وقد فرضت عليهما الحياة العملية نوعا من الترابط والتزاحم فالمعز انتدبهما لهذا الغرض دون سواهما من مئات الشعراء الذين يزخر بهم بلاطه ويدورون فى فلكه ٠ وهذا ما أكده ابن بسام فى ذخيرته قال فى ابن شرف : « وبينه وبين ابن رشيق ماج بحر البراعة ودام ووضح نجم هاته الصناعة واستقام » (١) هذه التحريات كانت ضرورية للتأكيد على ان الشاعرين لم تكن بينهما مهاجاة بالمعنى التقليدى المتسم بالحقد والكراهية بقدر ما كان بينهما من المداعبات قد تصل بعض الاحيان ـ شأن الاصدقاء ـ الى حد القسوة والاستهجان وعذرهما فى هذا ان الاصدقاء يتجاوزون عن غلطاتهم ٠

---

(١) ـ الذخيرة قسم رابع ج ١ ص ١٣٣ ٠

ومن المداعبات الطريفة التى تؤكد لنا سلامة قصد هذين الشاعرين « قول ابن رشيق فى نفسه وكان احول وفى الطوسى وكان اعمى وفى ابن شرف وكان أعور :

لابد فى العور من تيه ومن صلف　　لانهم يبصرون الناس انصافا
وكل احول يلفى ذا مكازمة　　لانهم ينظرون الناس اضعافا
والعمى اولى بحال العور لو عرفوا　　على القياس ولكن خاف من خافا (1)

وبهذه الطريقة المرحة يتناول ابن رشيق الناس والاصدقاء خاصة • يستند على عيوبهم الخلقية فيصنع منها نادرة تشاع فى المجالس تستنزف الضحك من أفواه السامعين • والهزل فى طبيعة ابن رشيق يأخذ اتجاهين بارزين •

1 — اتجاه مسالم الهدف منه السخرية البريئة التى تضحك ولا تؤذى وتداعب ولا تجرح وتربت على شعور المهجو ولكنها لا تنكأ شرفه ولا تذل كبرياءه من ذلك هجاؤه المتقدم لنفسه ولصاحبيه • وبهذه المداعبات المضحكة كان يتناول حياة الناس وحياته المتعبة أكله ولباسه ومنزله ويصل به الهزل الى محاجة ارب بأسلوب فكه يبهرنا بالضحك لكنه يتناول قضايا فلسفية خاض فيها العلماء وما اهتدوا • كقضية العدل الالهى والقسمة والنصيب والقدر المحتوم • ويستعين فى هذا المضمار بالشخصيات التاريخية والاساطير الدينية كقارون والنمرود قال يصف تكالب البعوض عليه :

يا رب لا أقوى على دفع الاذى　　وبك استعنت على الضعيف الموذى
مالى بعثت الى ألف بعوضة　　وبعثت واحدة الى النمرود (2)

ويسجل لنا مكر بغله وخبثه ويوصينا به شرا لان اصله معروف والشىء من مأتاه لا يستبعد :

وكيف يجىء البغل يوما بحاجة　　تسر وفيه للحمار نصيب (3)

---

(1) — ديوان ابن رشيق ص 155 •
(2) — بساط العقيق ص 111 •
(3) — بساط العقيق ص 112 •

2 ـ اما المسار الثانى الذى تناوله ابن رشيق فى شعره الهزلى فقد كان اكثر حدة وامس باحساس الناس ولا يجب أن نحكم على هذا النوع بالمقاييس الاخلاقية المتزمتة النافرة من كل كلام مستهجن وعلينا أن نمحصه ونستنتج منه الدوافع والملابسات وننظر اليه كشعر يسجل ظاهرة شاذة نشأت فى المجتمعات المتحضرة والبدائية على حد السواء لكنهـا كانت فى المجتمعات الحضارية اكثر شيوعا للتضارب بين مقاييس هذه الامم وللملها من الاسلوب الرتيب فى الحياة اليومية وبهذا المضمار سأروى أبياتـا شاذة لان فى هـذا تناول أدب نتحاشاه بدعوى المحافظة على الاخلاق والشيم الحميدة والفرار من الاحراج الذى قد يحدث • فالشاعر تناول ألفاظا مبتذلة وعرضها فى شعره بصراحة متناهية • وأنا لا أشك فى سلامة قصد الشاعر من أنه يريد الضحك ويضحى فى سبيل هذه التسلية بأعز الاصدقاء وربما بشيوخه ومعلميـه •

سيـدنـــا لا ينيـ••• حتى ينــا••• نيـ•• فيــه حــلاوة
كالفـاس لا يستجـد قطعـــا الا وفـى عينـه هـراوة (1)

هذان البيتان اذا تخطينا حدود التحفظ نستنتج منها شيوع الشذوذ الجنسى فى ذلك العصر ولا شك أن القيروان كانت مسرحا لتلـك العمليـات الشـاذة كغيرها من الحواضر العربية الاخرى كبغداد ودمشق التى تكثفت فيها مجموعات بشرية خليطة « وقلت فيها او انعدمت الثقافة الجنسية » (2) وفى المجتمعات الخليطة تتغير المقاييس الاخلاقية ويستباح فيها ما كان مستقبحا ويستساغ ما استهجـن •

هذه الظواهر المخلة بالقيم الاخـلاقية لا أدفعهـا اغتباطـا أو تحفظـا لان لها ما يبررها فى تاريخ الشاعر وباعترافه الصريح فالعصر كثر فيه الغلمان والشذوذ الجنسى سيل مندفع من الشباب الاجنبى سبيـا وشراء فأسـواق النخاسة مفتوحة والحجاب متحكم فى الجنس الثانى • يخبرنا ابن رشيق فى كتابه الانموذج قال : « اجتمعت بابن ابى حديدة يوما وأنا سكران فسألنى عن حال المكان الذى كنت فيه فوصفته وافضت فى صفته الى ذكر غلام كان ساقيا فقلت فى عرض الكلام ولم ارد الوزن :

(1) ـ حوليات الجامعة التونسية عدد 6 ص : 18 •
(2) ـ الهـلال افريل 1971 ص 161 •

فشربتهـا مـن راحتيـه	كـأنهـا مـن وجنتيـه
وكـأنهـا فـي فعلـ	ـها تحكى الذى فى ناظريه (1)

وهذا الاعتراف الصريح لا يحتاج الى تعليق او استنتاج • واذا ضاع جل شعر ابن رشيق فكتب الادب تروى لنا نماذج من خلاعة الشاعر وتهتكه واغراقه الجنسى • بيد أن هذا لا يؤثر فى روح الفن ونحن نفرق دائما بين سيرة الشاعر الذاتية وبين انتاجه • اللهم الا اذا كان هـذا الانتاج يشير اشارات صريحة الى عادات كانت متحكمة فى عصره فنسوقها لا رغبة فى التشهير أو الذم وانما لنستنتج منها اشارات تزيد العصر ايضاحا •

ويتمادى ابن شرف فى فضح العصر وتعريته الاخلاقية التى يحاول الباسها الفقهاء ورجال الدين لتلك المجتمعات الخليطة • يقول فى قطعة أخرى يبدى شذوذه الصريح الذى لم تفلح بيوت الله فى الحد منه بقدر ما كانت اماكن له :

أقـول لمـن يسائـل عـن محلى	تقـدم وامش من خلف السوارى
ومر بحيث مـا تلقـى حكاكـا	بسـ ••• لا تعد فثم دارى (2)

ورغم استهجان هذا النوع فانه يعمق استنتاجى الاول بشذوذ الشاعر ويظهر بحق طبيعته المرضية المزمنة •

أما ابن شرف فاطرف ما يروى له فى باب التهتك هجاؤه لحمام بالقيروان لعله كان نتنا ضيقا كما حاول تصويره لنـا ولم يتورع مـن وصف نفسه أقبح وصـف :

كـأنمـا حمـامنـا فقحـة	النتـن والظلمـة والضيـق
كأننى فى وسطـه فيشـة	الوطهـا والعـرق الريـق (3)

وبهذين البيتين اثبت اتجاهه الموالى لصديقه ورفيق كفاحه وبان الشذوذ ربما شمل العصر كله أو كان فاكهة العصر • ومما يروى فى هذا الباب اجازة

---

(1) — البساط ص 103 •
(2) — حوليات الجامعة التونسية عدد 6 ص 10 •
(3) — فوات الوفيات ص 104 •

ابن رشيق الطريفة للبيتين وعملية التوريط الكبرى التى أوقع فيها صديقه وقد استغل كل ذكائه الهزلى فى هذا البيت فأثبت صورة صديقه التى رسمها لنفسه بحجة أقوى من الاولى حين أكمل البيتين وخاطب ابن شرف :

وانت أيضا أصلع أعـور فصادف التشبيه تحقيق (1)

استغل صلعة وعور ابن شرف ليؤكد له البيتين السابقين بذكاء حاد وبديهة نادرة ودالة كبيرة بين زميلى المهنة وصديقى العمر .

وما روى لابن رشيق فى هذا الموضوع يعد أكثر تنوعا . ولا شك أن كتب الادب القديمة التى اتسمت بالمحافظة أهملت هذا النوع من الشعر بدعوى المحافظة على الاخلاق العامة .

أما النوع الثانى من هزليات ابن شرف فكانت عادية فيها نماذج معينة من الحياة يسلط عليها الضوء ليكبرها ويلفت اليها الانظار التى تفتش عن التسلية فى مجتمعات عاطلة من ذلك هجاؤه لدار صديق استضافه فلم يجد الشاعر ما يطيل مكثه فى هذا البيت غير الذباب والبعوض والبرغوث :

لك منزل كملت ستارته للهو تحت ذاك حديث
غنى الذباب وظل يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث (2)

---

(1) ـ ديوان ابن رشيق ص 113 .

(2) ـ الذخيرة القسم الرابع ص 177 .

ع . د .

(يتبع)

سبعة مقاطع متعبة على فراش المرض

شعر : على طراد

① تعـــب

متعب هنا على فراش المرض
تمر فوقى الآلام
أحلم بالخير للأطفال
وبالعدل للعمال ،
يجتاحنى السأم
وأنسى الألم
لأنى مذ خلقت وأنا متعب ؛
متعب .. متعب
وقلبى خزينة للأتعاب ،
ما دام فوق الأرض متعب واحد
يعانى الجوع والحرمان
ما دام فجر الناس يطلع كل يوم
بأوجه عده
وألوان كثيره

* * *

② زرقـــة

مبطوح هنا على الفراش الأزرق
مشوش الشعر والخاطر
فى غرفة زرقاء
سماؤها زرقاء
جدرانها بالزرقة مطليه
وعيناى مثلها زرقاء
نباحهما أزرق
وأنا هنا متروك كالبضاعة المنسيه
أحلم بالفجر الأزرق
لمن لم ينسهم حرمان
منذ زمان

* * *

③ ......

لا علم عند الأهل عن مرضى
سوى رسالة عاديه
وربما يسقط ساعى البريد مغشيـا عليه
وتسقط من يديه رسالتى العرضيه
فتحملها رياح مسعورة جنوبيه
خلف أسوار مدينتى الأثريه
وتتناثر حروفها اليتيمه
فخلوها أحبائى ترسم تفاصيل الملحمة السقيمه
لكن أعـرف يـا أحبـائى أن ميـاه « الفسقيه » (I)
ستشربها على نخب مرضى القلب
لتصبح مأساة منسيه

* * *

④ ما أراه وراء الزرقة

فى صباح هذا اليوم

بزغت شمس ربيع اثنين وسبعين
أطلت بسحنتها الفضيه
من نافذتى الصغيرة الزرقاء
وراء ستار غرفتى الضيقة المرميه
ذات الجدران الزرقاء
والسقف الأزرق
أطلت شمس هذا العام
من وراء الحجب
بعد شتاء مملوء بالتعب
ولياليه المشحونة بالأرق
وعشاياه المعجونة بالقلق
يطلع علينا شامخ الصدر
عنيف المظهر
بعد أن مارس أشكال الظلم
على كل المنهوكين
ولف أماسيهم بوابل من الضيم
ملقى هناك على سرير أزرق
نذب عنى شمس ربيع هذا العام
غبار الوهم الأزرق
وجراحات ثكلى فى جسدى تفجرها الأحلام
أرى هنالك وراء الأدغال المكظوظة
يتمطى طفل أصفر
عيناه تحدق عبر المطلق
تفرى أمعاءه رعشه
وتبدده وحشه
وأعرف أن الحقد الأبيض يذبح كرامته ويخرق

* * *

⑤ أسطورة أجهلها

أنا ما عرفت لون الزيف
وما أرضعتنى أمى حليب الزيف
وما عرش الزيف يوما فى سقف بيتنا
لأن قباب جوامعنا لم تبن على أرضية الزيف
لأن مؤذبنا الجوعان
وبآيات القرآن متخم شبعان
لم يلقنا سورة الزيف
ولم يتل على مسامعنا أسطـــورة نسيجها
الحيف
بالرغم من أنه ضحية الحيف
ويشقى ليفتك خبزه بالسيف
ولأنى عشت أماسى المدينه
ومآسى الريف
وغصت حتى العظم فى أوحال هـذا العالم المنهوك
حتى أنهكنى
وأمرضنى وأقعدنى
وأصبحت أرى نفسـى فـى المرآة كومضة طيف
سأبقى أبغضك يا شيئا يدعى الزيف ،

* * *

⑥ خطيئة العالم

ممرضتى الحسناء الزنجيه
تقطر عصارة الشفاء فى كأسى
بأصابع فضيه
وتبنى أمامى ركاما من الآمال من يأسى
تعطينى ما لـم يعطنى هـذا العـالم الغشاش

تفتح فى وجهى آفاق البشر والفرحه
وتنسج فى مآقى الظمأى
خيوط النور المشرب بأصباغ الآس
وتطعن أمامى كل خرافات الزيف
وتطرد عنى الخوف
ما أكذب مذابيح هذا العالم الأسود
ما أسقط جرائد كل الاكشاك
ما أكذب أفواه الناس
لم أر حتى اليوم
أنقى وأبيض من قلب أسود

* * *

⑦ ......

اتفقت كل الاقدار
أن أولد بجانب جامع عبقه
وأن يغمر عينى النور المنبثــق من
ثغر المحراب
وأن أرتع غير مبال فوق الأحجار
ألمس فيه عمق الأيام وكنه الأسرار
أذكر عندما مرضت بالحصبه
حملتنــى أمــى الى غـرفـة سيــدتى
« الريحانه » (2)
وحملت لها بين أصابعى ريحانه
لترشنى أهدابهــا بفيض المســك
والعنبر
ويقرأ شيخنا المنهوك سطورا من كتابه
الأصفر
فأضحــى نشيطــا أجــرى عبــر
العرصات والأعتاب
أذكر أنى أصعد المنبر كل الأيام
وأذكر أن إمام الجمعه
لا يصعده إلا يوم الجمعه

ع. ط.

---

(1) **الفسقية :** هى فسقية الأغالبة بالقيروان .

(2) **سيدتى الريحانة :** هى « ليلى الريحانة » وهى صحابية ولهــا مقــام وراء منبر جامع عقبة بن نافع بالقيروان ويوجد ضريحها فى حجرة كبيرة شيئا ما بالمسجد بها دائما رائحة المسك والعنبر وتسمى « بيت العدة » .

قريتنا تحتضر

قصة ، بقلم : علي الحوسي

ـ والارض يا بني ؟ ...

الشمس وهاجة والسماء ضنينة ... والقحط في أرضنا الذليلة ... والجدب في عيوننا العليلة ... والسقم في أجسامنا الهزيلة ...

ـ الارض تحتاج الى الماء والمال يا أبي ! ...

مهـر غال

ـ الصبر يا بني ؟ ... لن تنسانا رحمة المولى ...

قالها بصوت بائس وسكت ... أبي يعشق الارض ولو كانت عقيما ...

ـ الصبر خضـوع ومـوت ... والجـوع قاتـل فتـاك ... والامـل في التغلـب على الوضع السيء ضئيل ...

أحكم شد الصرة الصغيرة التي حوت كل ما يملك من ثياب ورغيفيـن مـن الخبز ، ولبس أفخر ما عنده : قميصا ومجعدا وسروالا من الخاكي ، هكذا يلبس ابناء المـدن ! ...

ـ انني أخاف عليك يا بني ... المدينة فم يبتلع الرجال ، وستضيـع في جوفها كما تضيع حبة رمل في صحراء شاسعة ، بل ستذوب في وسطها كما يذوب السكـر بالشـاي ...

ـ لن أكون الا كما ترغب يا أبي ...

وانحنى على والده فقبله قبلة سريعة ، وحث الخطى متحديا لطمات الشمس المحرقة ، يسحبه الامل البراق .. انه يخشى أن لا يلحق بالقطار ... ينحني ويلتقط حجرا نائما على الارض ، يرمي به كلبه الذي كان يتبعه بالحاح عنيد ..

ـ قلت لك ليس للكلاب مكان في المدينة ؟ ..

غير أن الكلب يحيد عنه ، ويصر على الالتحاق به.. انه هو أيضا يتوسل اليه

أن لا يغادر القرية ··· أن يمكث مع أهله ··· أن يربط مصيره بمصيرهم ·· انهم جميعا فى حاجة اليه ···

ـ سيفوتنى القطار هذا اللعين !···

تحسس يديه الغليظتين المشققتين ·· لكم تألم منهما المحـراث والفـــأس والمسحاة وحبل بئر القرية،فما أنجبت الارض··انحدرت عيناه الىالاسفل··· اطلت عليه قدماه المشققتان كخشبة يابسة ·· ما الذى يعجبه فى هذه القرية ؟ الوجوه كالحة صفراء ، أكلتها التجاعيد ·· ان النظر اليها يقشعر له البدن ·· شيوخ وعجائز وأطفال صغار حفاة عراة ··· هؤلاء هـم سكان القريـة ··· والعائدون ـ وما أندرهم ـ يرفلون فى أحسن الملابس ، يحملون أجمل الهدايا

الا قليـــلا ···

يلتفـــت ···

الكلب ما زال يتبعه لا هنا ·· والقرية ساكنة سكون الاموات ·· لقد لفهـا النوم فى واضحة النهار ·· الشمس ألقت بكل لهيبها فأحالت التنفس الى أمر مرهـق ·· العرق يتصبب منه غزيرا ···

ـ حرام عليك يا أبى ! ·· تلومنى على الذهاب ؟ ·· ألا تريدنى أن أعيش ؟ ·· لقد قلت لى :

ـ ان القرية تحتضر ·· لقد تركها أبناؤها ·· أغرتهم المدن ·· لم يبق فيها غير الشيوخ والعجائز ·· ان الارض ليست عاقرا ·· تريد رجالا ·· تريد أن تثمر ·· فأجبتك :

ـ اننى قطرة ·· والقطرة لا تروى أرضا عطشى ·· لقد حملنـا البـؤس سنوات فما طلع الفجر ···

قلـــت :

ـ قبور أجدادكم تناديكم ··· تتوسل بكم أن عـودوا ؟ ·· ألا تسمعـوا نداءهم ؟ ·· ألا تسمعوا نداءنا ؟ ··
لكننى رفضت قائـلا :

ـ لن أعيش بين قبور متنقلة ··· اننى أريد أن أعيش ·· أريد غدا مشرقا

··· بعدا وسحقا لحياة الظلام والشقاء ·· ان قريتكم مشـؤومة ، غـادرها أبناؤها فتفتحت لهم كنوز العمل والوظيف ··

قلـــت :

ـ ستنســانـا ؟ ··

ـ لن يكون ذلك يا أبى ·· سأتدبر أمورى وأجد عملا ، وأبعث اليكم أموالا تطردون بها شبح البؤس ، وتحاربون بها الجوع والعراء ···

ـ وكيف تصلنا أموالك ؟ ··

ـ سأرسلها الى حانوت العم فرج ·· هكذا يفعل أبناء القرية ·· حانوت العم فرج يقوم مقام مكتب البريد فى القرية ··· ما أحوجه الى الاصلاح ، انه متداع للسقوط ···

تواطأت المسافة مع الشمس المحرقة هكذا شعر ·· رجلاه تلهثان والكلـب وراءه يلهث ·· جلبة وآمال فى رأسه ·· والمحطة لا تطل ··

ـ أريد أن أعيش ·· أن أتنفس ·· أشعر باختناق فى هذه القرية البائسة ·· بالامس كانت قريتنا حافلة بأبنائها ·· أما اليوم فقد أمســت عجـوزا ·· بالمدينة مواكب وبالقرية مواكب ·· وما أبعد ما بينها ··

وتطل عليه المحطة القابعة قبوع الدهر ·· الغارقة فى الانعزال ·· تحيـط بها أرض بور أكلتها الاشواك ، وشجرتان مـن الصفصاف تثبـت هويتهـا ، استظلت تحتهما جماعتان تنتظران القطار ···

ـ الى أين ؟ ·· هل ثاروا مثلى على بؤس قراهم فطلقوها ؟ ·· هلموا معى الى مدينة الاضواء والانوار ؟ ··

ـ الى مدينة الالوان الجميلة ·· مدينة الخبز الوافر والخير والرفـاهية ·· الى تونس حيث الجوع والعراء ليس لهما مدلول ··· هكذا حدثنى أبناء قريتى الذين ذهبوا اليها ···

انه لا يعرفها ··· لم يزرها ·· بهره حديثهم ·· لم يعد يقاوم الرغبة الملحة فى زيارتها ·· بل فى العيش فيها ·· أكدوا له أنهم بامكانهـم أن يتحصلـوا يوميا على المال ·· عوائد أعمالهم يومية ·· أما هو فلا يراه ـ وهو فى قريتـه هذه ـ الا نادرا ·· فى المواسم ·· قالوا له : حيـاة المدينة هى التى تحقـق الرفاهية والمتعة ···

دخل المحطة ليقتطع تذكرة الذهاب بينما قبع الكلب فى الخارج ٠٠ ان أمله فى اقناع سيده بالعودة لم ينقطع ٠٠٠

ـ مسكينة هى أمى ٠٠٠ ثلاث دجاجات تعبت فى تربيتهـا ٠٠٠ هى كـل ثروتها ٠٠ بعتها فى سوق القرية ـ طبعا بعد ترخيصها ـ مع أربع صيعان من الشعير ٠٠٠ هذه التذكرة ستوصلنى الى تونس ٠٠٠ بقى لدى دينار ونصف ٠٠ سأتصل بأبناء القرية هناك ٠٠ لقد وعدونى بالمساعدة والعون ٠٠٠

قطع عليه تفكيره صفير قطار هائج يكبح جماحه ليتوقف عند المحطة ٠٠٠

امتطى عربة الدرجة الثالثة ٠٠ واستأنف القطار سيره ٠٠ وتحول الى نقطة صغيرة تختفى حثيثا عن نظر الكلب الذى قفل راجعا ، بعد أن يئس من رجوع سيـــده ٠٠٠

عربات القطار تتأرجح يمنة وشمالا ٠٠ جسمه يهتز بعنف ٠٠ كل الاجسام تهتز ٠٠ الرؤوس لم تعد قادرة على الاستقرار على وضع واحد ٠٠ وقع أصوات السكة الحديدية مزعج ٠٠ الاشجار تتراكض مع القطار ٠٠ القطار يسترجـع أنفاسه عند كل محطة ، ثم يستجمع قواه ويستأنف سيره ٠٠ أدخلت السرعة التى تبعده عن قريته فى نفسه شعورا غريبا ٠٠ قد يكون خوفا ٠٠ سرورا ٠٠ أسفا ٠٠ أو هو مزيج من كل ذلك ٠٠ أحس بالجوع ٠٠ وخزته أمعاؤه ٠٠ تردد مرات ومرات قبل أن يخرج رغيفا من الصرة فيقطع منه جزءا يلتهمه بخجل ٠٠

صاح مراقـب التذاكـر :

ـ تونس ٠٠٠ وصلنـا ٠٠٠

بهرته المدينة ٠٠ البناءات متواصلة كأنها سلاسل جبلية لا تنتهى ٠٠ الناس كأنهم فى يوم الحشر ٠٠٠

السيارات ٠٠ العربات ٠٠ المغازات ٠٠٠

ـ تاكسى ٠٠ تاكسى ؟ ٠٠٠

ـ قليبات ٠٠ قليبـات ؟ ٠٠٠

ـ حمال ٠٠ حمال ٠٠ حمال ٠٠

ـ طـوط ٠٠٠ طـوط ٠٠٠

ـ انتبـه يا ولـد ؟ ٠٠

سواقر ٠٠ شوينقوم ٠٠ سواقر ٠٠ شوينقوم ٠٠

ـ نداءات ٠٠ تزمير ٠٠ أصوات اختلط بعضها مع بعض وتجاوبت فى آن واحد ٠٠ أحس بصداع قاتل ٠٠ رأسه يدور ٠٠ البناءات شاهقة تناطح السحاب ٠٠ كوخهم صغير يكاد سقفه يلامس الارض ٠٠ أحس بخوف ٠٠ عليه أن يحتاط من أولاد الحرام والنصابين الذين حدثه عنهم أبناء القرية ٠٠ ان المدينة تعج بهم ٠٠ أين سيجد أحمد ابن عمه وصالح وعبد الله وفرحات أبناء القرية ٠٠ لقد تركوا له عنوانهم ٠٠ انهم يسكنون فى ٠٠ لقد نسى ٠٠ أين الورقة ؟ ٠٠ أين العنوان ؟ ٠٠ آه انه فى جيبه ٠٠٠

وضع الصرة بين رجليه ٠٠ ضغط عليها بشدة ، ثم أخرج خرقة من جيبه ، فتحها وأخرج منها ورقة متآكلة ملفوفة ، فتحها وقرأ فيها العنوان بصعوبة ٠٠ لم يتعلم فى المدارس ٠٠ لقد حفظ بعض السور القرآنية عند مؤدب القرية ٠٠ تردد عليه مدة سنتين ، تخللتهما فترات انقطاع اجبر عليه فرارا من عصا المؤدب التى لا ترحم وشتائمه اللاذعة ٠٠ قلوب الأطفال تخفق رعبا وخوفا عندما يرونه ممتطيا حماره القصير متجها نحو زاوية سيدى عبد السلام ، حيث كانوا يحفظون القرآن بلا فهم ٠٠ على أنه كثيرا ما تخلف عن الذهاب لأسباب أخرى : اذ عليه أن يجمع الزيتون من شجيرات بخيلة ٠٠ أن يحصد شعيرا لا يكاد يعلو على الأرض شبرا أو شبرين ٠٠ أن يحرث أرضا يابسة كالصخور مشققة كأنها قبور معدة لتستقبل أهل القرية ٠

إنهم يسكنون بيتا فى نهج عاشور عدد 75 ٠٠ وما معنى هذا الرقم ؟٠٠

هل حلت الأرقام محل الأسماء فأصبح كل مسكن يحمل رقم صاحبه ؟ ٠٠ ومن سيهدينى الى هذا العنوان ؟٠٠ كيف الخروج من هذه الورطة ؟٠٠ لا مفر من أن أسأل شخصا ٠٠ ليقولوا عنى غريبا ؟ ٠٠

ـ من فضلك يا أخى ٠٠ هل تعرف هذا العنوان ؟ ٠٠

ـ نهج عاشور ٠ خذ سيارة تاكسى ستوصلك اليه ٠٠

ـ من أين أجد التاكسى ؟ ٠٠

ـ قف هنا وستأتى اليك ؟

سمع شخصا ينادى : تاكسى ؟ تاكسى ؟

وقفت سيارة صغيرة لونها أحمر وأبيض وتحمل فوق ظهرها رقما ٠

ـ ان كل شيء فى هذه المدينة يحمل رقما ٠٠ لقد عرفتها لقد ركبها السيد المنادى ٠٠٠

ـ تاكسى ؟ ٠٠ تاكسى ؟ ٠٠ لماذا لم تقف ؟ ٠٠ هل عرف صاحبها اننى غريب ٠٠

سأنتظر غيرها ٠

سيارات مسرعة كأنها فى سباق ٠٠ محركات تغلى غليان المرجل ٠٠ عربات تدفع أو تجر ٠٠ الناس يتقابلون ويتباعدون ٠٠

ـ تاكسى ؟ ٠٠ تاكسى ؟ ٠٠

تقف سيارة الأجرة الصغيرة أمامه ٠٠ يمتطيها ٠٠

ـ خذنى من فضلك لاولاد عمى ؟ ٠٠

ـ أين يسكن أولاد عمك ؟ ٠٠

ـ فى نهج عاشور رقم 75 ٠٠ أتعرفهم ؟ ٠٠

وانطلقت السيارة تبحث عن العنوان ٠٠ جابت شوارع وأنهجا ٠٠ ومرت بساحات ٠٠٠ واجتازت أزقة ضيقة ، لتتوقف أمام باب صغير من خشب متآكل ٠٠

ـ هنا يسكن أولاد عمك ٠٠ تفضل ، انزل ؟ ٠٠ مائة وثمانون مليما ٠٠

انها كثيرة ٠٠ مائة وثمانون مليما فى أقل من ربع ساعة ٠٠ لكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك ٠٠ يظهر أن النقود تجمع بسهولة فى هذه المدينة ٠٠ هكذا تبادر الى ذهنه ٠٠ يفتح صرة قد حفظ فيها نقوده ٠

ـ تفضل يا ابن عمى ؟ ٠٠

يقدم له الاجرة ٠٠ ويحاول النزول ، لكنه يعجز عن فتح باب السيارة ، فيساعده سائق التاكسى ٠٠ وينزل ٠

يحجم قبل أن يطرق الباب ٠٠ لا يصدق أنه أمام مسكن ابن عمه ٠٠ كيف تم له العثور عليه بهذه السهولة وسط هذه المدينة الكبيرة ٠٠ يتشجع فيطرق الباب ويخرج أحمد ابن عمه ٠٠٠

ـ من ؟ ٠٠ منصور ابن عمى ؟ ٠٠ أهلا بك ٠٠٠
يتعانقان ٠

ــ كيف أتيت الى هنا ؟ ٠٠ كيف حال عمى ؟ ٠٠

ــ عائش والحمد لله ٠٠

ــ والقــريــة ؟ ٠٠

ــ تحتضــــر ٠٠

ــ وأهل القرية ؟ ٠٠

ــ ينتظرون دورهــم ؟ ٠٠

ويدخله أحمد غرفة معتمة ليس بها غير نافذة صغيرة مهشمة الزجاج بخيلة الاضاءة ٠٠ وثياب قديمة علقت بمسامير غليظة متشبثة بالحائط المتهرىء ٠٠ وحصر مفروشة على الأرض تغطى أجزاء منها بعض الجلود الوسخة ٠٠ وأوانى طبخ قديمة رصفت بغير نظـام فى زاوية من زاويا الغرفة ٠٠ وصور لبعض الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات ، وأخرى خلاعية ، ألصقت بالجدار ، أزاح عنها بصره بسرعة خجلا ٠٠٠

آنتهت عمليات الترحيب ، واستعد أحمد لطهى الطعام ٠٠

ان اليوم دوره هو ٠٠ واخجل أحمد ٠٠ ليس فى امكانه أن يشترى لحمـا لابن عمه الضيف ٠٠ مـاذا سيفعل ؟ ٠٠ كيف يعلل ذلك ؟ ٠٠ سيقول عنه بخيلا ٠٠ سيظن أنه لم يفرح بقدومه ٠٠ لكن الجيب خاو ٠٠ والجماعة ليست أحسن منه حالا ٠٠ سيقول له ان الجزارين لم يذبحوا فى هذا اليوم ٠٠ فى القرية يذبحون مرة فى الاسبوع ٠٠ وستنطلى عليه الحيلة ٠٠٠

ــ ستساعدنى فى اعداد الأكل يا منصور ؟ ٠٠

ــ حاضر ٠٠ أتطبخون بأنفسكم ؟ ٠٠

ومن هذا الذى تريده أن يطبخ لنا ؟٠٠

ــ لقد نسيت ٠٠ ان زوجتك تقرئك السلام وترجوك أن تتذكر أبناءك٠٠٠

تحسر أحمد ولم يعلق بشىء ٠٠

ينهمكان فى اعداد الأكل ٠٠٠

يصل صالح وعبد الله وفرحات ابناء القرية ، وتعـاد حفلـة الترحيب والعنـــاق ٠

ــ ما الذى أتى بك يا منصور ؟٠٠

ـ البؤس أطردني من القرية ..

ـ والنعيم جلبك الى المدينة ؟ ..

ـ نعم ذاك ما أرجوه ..

تعلو الضحكات.. فيتعجب منصور.. لم يقل شيئا مضحكا على ما يعتقده..

ويستمر الحديث عن القرية .. وتعاد الذكريات .. وينصتون باهتمام لحكايات منصور .. ويسألونه عن بئر القرية حيث كانوا يجتمعون لجلب الماء .. وعن حانوت العم فرج حيث كانوا يلعبون الورق ، ويحتسون الشاى ، مقابل بيض أو شعير .. وعن الشيخ محمود الذى طالما جاءهم على حماره الأبيض الطويل ليأخذ الاداءات الحكومية .. فيخبرهم أن الحكومة عزلته ، وعوضته بالشيخ سالم ، لأنه ثبت أن الشيخ محمودا كان يسرق أموال الدولة .. ويسألونه عن مشاريع تأسيس مدرسة ابتدائية وجلب الماء والكهرباء والهاتف الى القرية .. فيخبرهم أنها مواعيد عرقوب وأن حالة القرية تسوء أكثر مما كانت عليه .

وينتهى العشاء ، وتنصب حفلة الشاى فيتناولون منه قدرا كافيا .. ثم يخرجون ليتجولوا فى المدينة .. تبهر الأضواء منصورا وتتيه نفسه وسط الحشود ، فيقوده أبناء قريته وهو لا يعرف من أين تبتدىء المدينة ولا أين تنتهى .. وتتزاحم الأسئلة فى رأسه ، ويزداد تعجبه من كثرة الناس .. المدينة لا تعرف النوم.. القرية دائما فى سباق عميق.. رهيب.. كالعدم.. ألا يتناول الناس هنا نصيبا من الراحة ؟.. الشوارع مملوءة .. المقاهى مملؤة .. المطاعم مملؤة .. قاعات السنما تحتشد أمامها جموع غفيرة .. المساكن كأنها ألقت بكل سكانها الى الشوارع .. القرية معتمة يستضىء أهلها بقناديل بسيطة ، باهتة الاضاءة ضئيلة الاشعاع ، لا توضح ما قرب منها ..

يرجعون .. وهو لا يعرف كيف رجعوا .. لقد وجد نفسه فجأة أمام الغرفة .. تمنى لو بقى ـ رغم تعبه ـ الليل كله يجوب الشوارع ...

وينامون على الحصر نوم النعاج ...

يأتى الصباح ، فينهضون ليبدأوا يوما جديدا من البحث عن العمل أو التسكع فى الشوارع ...

اثنان فقط يعملان :

أحمد يبيع ـ بدون ترخيص ـ بعض السلع البسيطة فى عربة يدفعها أحيانا وتجره أحيانا أخرى سالكا الأزقة الضيقة ، متحاشيا الاقتراب من الشوارع الرئيسية ·· انه يخشى أعين الشرطة ·· الشرطة أبغض الأسماء عنده ·· صالح يعمل فى مطعم يغسل الأوانى ، يمسح الموائد ، ينظف قاعة الأكل ، يغسل المناديل ··· مقابل أجر بسيط لا يتجاوز ثلاثمائة مليم فى اليوم يخصم منه ثمن الصحون التى يكسرها ··· أما عبد الله وفرحات فما يزالان عاطلين ، وهما يجدان فى البحث ···

تمر الأيام ·· ولا يجد منصور وأصحابه عملا ·· لقد تعود على المدينة ·· عرف جل شوارعها ، بامكانه أن يخرج وحده علّه يجد عملا ، أو يقنع بالمشاهدة ·· مشاهدة المقاهى الفخمة ·· واجهات المغازات الجميلة ·· العمارات الشاهقة ·· الناس فى أزيائهم البديعة ·· السيارات الفخمة ·· المطاعم الفاخرة ·· كثيرا ما تحسس جيوبه ولكنها كانت تخونه فى كل مرة ·· فيتحسر ·· لكنه لا يثور ·· عن قريب سيجد العمل ، وتتحسن الامور ، ويقتنى أفخر الملابس ، ويشرب قهوة فى ذلك المقهى الذى يسمونه : « مقهى باريس » ويرجع ·· تدفعه الخيبة · فيجد أبناء عمه ـ كما يقول ـ محتفلين ·· لقد وجد فرحات عملا ·· أربع قوارير حمراء تحلقوا حولها ·· يحتسون خمرها فى نشوة ·· ان ثمنها دين على صاحب العمل الجديد ·· هكذا تعودوا أن يفعلوا ·· وهكذا يفعلون فى كل مناسبة يرتفع فيها دخلهم البسيط ·· أجبروه على أن يتناول نصيبه ·· أن ينسجم مع الجماعة ·· امتنع ·· اعتذر بعدم التعود على شرب الخمر ·· لكنه هدد بالطرد ·· أين يذهب فى هذه الليلة ؟·· أين المأوى ؟·· الجيب خال ·· اتهموه بالتأخر ·· ما زلت قرويا ؟·· كل أهل المدن يفعلون مثلنا ·· خضع لأمر الجماعة مكرها ···

وتلعب الخمرة برؤوسهم ، فيخرجون ـ كعادتهم ـ ليجوبوا الشوارع ·· الشوارع الكبيرة ·· يغنون ويعربدون ، فيثيرون الانتباه ·· الوجوه توجه لهم نظرات مستنكرة ·· احتج بعض المارة على هذه التصرفات ·

ويلقى عليهم القبض··لم يفعلوا شيئا ·· لم يمسوا احدا بسوء··مفاصل منصور ترتجف ·· اسنانه تصطك جسمه لا يقوى على حمل رأسه ·· لم

يسبق له ان مثل أمام الشرطة .. كلهم يرتجفون .. قلوبهم تخلق بشدة .. بغير انتظام .

ويساقون الى المركز .. ويسألون :

ـ اسمك ؟..

ـ منصور ..

ـ أين بطاقة تعريفك ؟..

ـ ماذا تقصد ؟..

ـ بطاقة تعريفك .. أتفهم ؟..

ـ لا : :

ـ البطاقة التى يوجد بها اسمك ولقبك وتاريخ ومكان ولادتك وعنوانك وعملك وتحمل صورتك ..

ـ ليس لى مثل هذه البطاقة .. ما فائدتها ؟.. بامكانى ان اجيبك عن كل ذلك .. اما صورتى فلا فائدة منها ، فانا موجود بنفسى أمامك .. ويبحث الجميع .. وتتقرر اعادتهم الى قريتهم .. فيرفضون العودة ويتوسلون من أجل البقاء .. ويتعهدون بعدم العودة الى مثلها .. لكن لم تسمع توسلاتهم ويجبرون على العودة .. وينقلون الى القرية .

البؤس ما زال يهيمن على القرية .. والكلب مات .. بل مات الجانب القروى فى منصور .

تخلص من نداءاته .. تحرر منها .. سمع نداء داخليا : لا تبق فى القرية .. جرب مرة أخرى .. لقد فشلت .. لكن مرة واحدة .. ما تزال قريتك عامرة .. بالقحط .. بالخراب .. أطرق الباب مرة أخرى ..

وكان رد فعل منصور صرخة دوت ارجاء القرية النائمة : أنا عائد .. عائد اليك أيتها المدينة .

ع. ح.

القصيدة الاخيرة

شعر : محمد حمدى

وأعرف أن هذا الشعر لا يجدى
وأنك فوق كل الحب والاوهام والسهد ..
ولكنى سأرويها ..
سأرويها الى العشاق من بعدى ..

* * *

عشقت بكل أعصابى
نسيت تشردى ، عدمى ، وأتعابى
رضيت بمسربى القدر
ولم أضرب عن القدر
أنا فى الحب لم أومن باضراب
وفى يوم
وجدت الله مقتولا على الدرب
رأيت مدينتى تسبى
وتسقط شمس أيامى على بابى
حملت الطعن فى قلبى
كتمت نهايتى عنك ..
وعن قلمى وأصحابى
وسرت .. ولعنة الايام تكبر تحت أثوابى

* * *

وددتك آية القرآن .. تنقضى من الشرك
وددتك قوة الايمان فى شكى
ومعتقتى من الاحزان .. والافك
وددتك أول الايام فى عمرى .. بلا شوك

وددتك فوق آمالى وودى
وأكبر من أحاسيسى وجهدى
ولكنى عرفتك تتقنين قواعد السفك
وأنك شهرزاد تستبد بشهوة العبد
وأعرف أن هذا الشعر لا يجدى
وأنك فوق كل الحب والاوهام والسهد
ولكنى سأرويها
سأرويها الى العشاق من بعدى ٠

م٠ ح٠
فيفرى 71

بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى

أهدانا الدكتور عبد الجليل التميمى كتابه « بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى » (1816 ـ 1871) وهو كتاب كما قال صاحبه : « وضعناه بادىء الامر باللغة الفرنسية ٠٠٠ وقد قمت بترجمته الى العربية لايمانى العميق بسلامة اللغة العربية وبثراها وطواعيتها الخلاقة على أداء أدق النظريات التاريخية بأكمل ما يكون الاداء شمولا وعمقا ووضوحا ٠٠٠

٠٠٠ وسبب وضعى هذا الكتاب يرجع الى أنه سيقدم كأحد الاجزاء الثلاثة للرسالة التى أعدها لنيل درجة الدكتوراه الدولة فى التاريخ الحديث من جامعة فرنسا ٠٠٠ »

ونحن نهنئه على حزمه فى الانتاج ولا نملك الا أن نقول مثل ما قال أستاذه فى مقدمة الكتاب : « يمكن لنا أن نعتمد على السيد عبد الجليل التميمى للعمل على تقدم فن التاريخ ، وأنا انتظر منه أن يقدم لنا فى القريب العاجل الحجة القاطعة على ذلك » ٠

قصة طريفة لمدرسة

بقلم : محمد الهادى العامرى

الروح الاسلامية فى الصدر الاسلامى هى التى اشادت صروح العبادة واقامت المآوى للعجز ، والضعفاء والبائسين واسست المستشفيات لمعالجة الامراض واسست المدارس لبث المعرفة وكانت تهدف الى الخير المحض الذى اراده الله من الانسان فى هذه الارض وفى هذا الوجود بدون ترقب ثناء من النـاس ولا تظاهر ولا رياء ٠٠ وشعارها كما نطق الذكر الحكيم ـ لا نريد منكم جـزاء ولا شكورا ـ وكان المرابطون الاولون بالثغور الاسلامية يتطوعون بحراستها من الاعداء ويندفعون الى حمايتها بدون طمع ولا رياء ايمانا منهم بشرف العمل الذى يقومون به ابتغاء رضوان الله الذى اراد من الانسان ذلك ودعاه الى العمـل الصالح لانه صالح والى المسارعة فى فعل البر لانه خير وبر بدون ان يفسـده المحسن باذى الشوائب التى تحط من قيمته وتعرضه الى الاطماع كيفما كان لونها سامية او سافله ٠٠ وتمادى المسلمون على ذلك طويلا الى القرن السادس الهجرى فقد نقل ابن خلكان المؤرخ المتحرى فى كتابه وفيات الاعيان فى ترجمة صلاح الدين الايوبى الذائع الصيت ما يبرهن على رسوخ تلكم الروح حتى لذلك العهد قال ابن خلكان ما يلى قال : قلت ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية كان مذهبها مذهب الامامية فلم يكونوا يقولون بهذه الاشياء فعمد فى القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعى رضى الله عنه وجعل عليها وقفا طويلا وجعل دار عباس مدرسة للحنفية وعليها وقف جيل كبيـر ايضا والمدرسة التى بمصر المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعية وقفها جيد ايضا وله مدرسة بالقدس ايضا ووقفها كثير وخانقاه بها وله بمصر مدرسـة للشافعية : قال : ولقد فكرت فى نفسى من امور هذا الرجل وقلت انه سعيد فى الدنيا والاخرة فانه فعل فى الدنيا هذه الافعال المشهورة مـن الفتوحـات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شىء منسوب اليه فى الظاهر فان المدرسة التى بالقرافة ما تسميها النـاس الا بالشافعى والمجاورة

للمشهد لا يقولون ايضا الا المشهد والخانقاه لا يقولون الا خانقاه السعد او المدرسة الحنفية الا مدرسة السيوفية والتى بمصر لا يقولون الا مدرسة زين التجار والتى بمصر لا يقولون الا مدرسة المالكية وهذه صدقة السر على الحقيقة الخ اهـ الا ترون كيف كان السلف يفسرون الاعمال الخيرية فى سائر الميادين بصدقة السر التى لها اثرها فى فعل الخير المجرد ولن يعلمها الا من اقيمت لرضوانه وهو الخالق الذى اراد للانسان ان يكون بارا بغيره بدون امتنان وطالما نهى عن المن : فقد جاء فى التنزيل الحكيم ــ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ــ الآية سورة البقرة ــ وخاطب رسوله الكريم صلوات الله عليه ناهيا عن المن فقال له فى سورة المدثر ــ ولا تمنن تستكثر ــ وقد اعتنقت بعض الجمعيات الخيرية الاجتماعية فى مستهل العصر الحديث باروبا المؤسسة لاعانة الطلاب وغيرهم هذا المبدأ فكانت ترسل بصدقاتها للمحتاجين سرا بدون ان يعلم الذى وجهت له الاعانة من اى مكان مصدرها ليحفظوا له كرامته وشعوره الانسانى وعزته وينشأ حرا لا يشعر بمنة احد عليه ٠٠٠ وعلى العكس من ذلك نحن المخاطبين بتلكم التعاليم فاننا تنكرنا لها وخالفناها وحاولنا الظهور بكل الوسائل ليتحدث الناس عنا ٠ ولم نقف عند هذا الحد بل لما ضعف ايماننا فى القرون الحالكة انبرى من بيننا جهلة اغرار يبتكرون الطرق لحمل الناس على فعل البر فأخذوا يضعون الاحاديث النبوية الكاذبة على لسان الرسول الكريم بدعوى الترغيب فى الصالحات والتشجيع على ذلك فأكثروا من الاختلافات فى ذلك : من ذلك الحديث الذى رووه على الرسول الكريم صلوات الله عليه بزعمهم : من رابط بالمنستير ثلاثة ايام وجبت له الجنة عن أنس الذى قال بخ بخ يا رسول الله وهلم جرا من الموضوعات السخيفة كسخف واضعيها وقد تسربت هذه الافكار الى ادمغة العامة فاخذتها حقيقة فى كثرة من هذه الاحاديث التى لا اصل لها ٠

ثم كانت المدرسة القرآنية الاولى المؤسسة 1913 بالمنستير تنتقل من مكان الى اخر مقابل كراء يدفع وظلت كذلك بضع سنين الى ان انبعثت من افاق رجل الخير راجى رحمة ربه الحاج عثمان هنية المنستيرى اريحية كريمة تبشر بانفراج ازمة تنقل المدرسة الى حيث تلقى من الترحال عصاها ويستقر بالمكان المتبرع به نواها فاعلن عزمه على التبرع بالمكان وانتهز الفرصة المرغبون فى الخير المعلل فلقنوا المؤسس ان يشترط فى وثيقة التبرع بمحل المدرسة شرطا استثقلته نفوس اولياء التلاميذ وسياتى نصه وقد تسبب ذلك الشرط فى تعطيل النفع بذلك المشروع زمنا بين اخذ ورد وكتائب فى الصحف التونسية وآثر اولياء التلاميذ دفع الكراء على الدخول تحت ذلك الشرط الذى رأوا فيه

تبرعا معللا وبرا قصد من ورائه المقابل وصدقة يشوبها المن ٠ وصــدر ذلـك التبرع او التحبيس فى ذى الحجة سنة 1337 الموافق لـ 14 سبتمبـر 1919 ٠ ومحل الحاجة من الوثيقة التى تضمنت التحبيس والشرط ننقله عن وثيقة التبرع حرفيا واليكم ذلك بعد وصف محل التبرع : قالت الوثيقة وذلك ــ اى التحبيس ــ على التلاميذ الذين يتعلمون الكتابة والقرآن العظيم ومبادى العلوم الدينية بالمكتب المعبر عنه بالمدرسة القرآنية بالمنستير على اختلاف طبقاتهم على ممر الايام والدهور تجعل الدار المذكورة مكتبا لهم يشتمـل عـلى عدة اقسـام بحسب مراتبهم يتعلمون فيه الكتابة العربية وقراءة القرآن العظيـم ومبـادى العلوم الدينية مقاصد ووسائل ومبادى العلوم العصرية ان احتيج اليها ؟ على الدوأم والاستمرار ما تداول الملوان واختلف الجديدان طبقة بعد طبقة ونسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل على شرط ان تقرا التلاميذ الذين تقرءون بالمكتب المذكور عن كل يوم تقع القراءة به قل هو الله احد احدى عشرة مرة والمعوذتين والفاتحة مرة واحدة ويهدون ثواب ذلك للمحبس الخ اهـ واصر اولياء التلاميذ على موقفهم واصر المحبس على التمسك بشروطه وبسطت القضية لدى وزارة الطيب الجلولى وكتبت الوزارة فى هذا الشأن كتابا مؤرخا فى 17 قعدة وفى 6 أوت من سنة 1338 هـ ــ الموافق سنة 1920 بما خلاصته : استفيد من التحبيس الذى وجهتم نسخة منه ان المدرسة اشتملت على المرافق المطلوبة زيادة عــن الاقسام والتنظيم وحسن الموقع وان المحبس اشترط قراءة سـورة الاخـلاص احدى عشر مـرة والمعوذتين والفـاتحـة مـرة مـرة واوليـاء التـلاميـذ استثقلوا الشـرط بمـا فيـه من الكلفـة وفى نظرنـا ان تـوقيف فتـح المدرسة مع الاحتياج اليها ولياقتها من كل الوجوه غير مستحسن بالمرة لا سيما وان المحل الذى يقرأ به التلاميذ الآن مسوغ باثمـان وهو دون المـدرسة فى الاهمية والاليقية من كل الوجوه فالمراد اعلام من يلزم بان ما اشترطه المحبـس من القراءة الراجع ثوابها للمحبس من التلاميذ يتعين المحافظة عليه واقناع اولياء التلامذة بترك المعارضة وفتح المدرسة فى القريب العاجل الخ وقد اجاب القاضى وقتئذ عن الكتاب بعد ان استدعى اولياء التلاميذ واجماعهم على الرفض والتمسك بالمعارضة واخيرا آنحسم الخلاف وثاب اوليـاء التـلاميذ الى الموافقة وفتحت المدرسة فى نوفمبر من سنة 1923 م تحت مسؤولية وادارة الشيخ محمود عباس الذى كان يتعاطى الاشهاد بالمحكمة الشرعية واستمر مديرا لها الى ان عيــن للقضاء سنة 1928 وتخلى عنها وتسلمتها فى ثالث افريل من سنة 1928 من الشيخ الفاضل سليل الاخيار الافاضل محمد الصالح السعدى رئيس اللجنة المـالية للمدرسة فشرعت فى العمل فى حماس اغير برامج المدرسة وأبذل ما لدى من

جهود فى اصلاح شؤونها والسير بها قد ما فعلت ذلك ولا رخصة بيدى ـ والذى جربته من عمرى ان حسن النية مع الاخلاص كفيلان بالنجاح حب من حب وكره من كره لان المدير المتخلى عنها سامحه الله قلب لى ظهر المجن محاولا ان يفسد ويخرب جميع ما بنيته ويعرقل السعى الذى سعيته فاحال على رئيس اللجنة نقدا اطلعنى عليه واشعرنى تغمده الله بالرحمة والرضوان بسوء نية الناقد ومناورته المفضوحة وحقق لى انه يعرف الحقيقة وانه يمنحنى من ضميره الطاهر النقى تأييده وتشجيعه ولا يحفل ابدا بالترهات والاباطيل بل هو مستعد للقضاء على تلكم المناورة التى اثارها الحسد وفعلا انجز ما وعد وحقق ما صرح به واليه توجه وقصد وبرهن عن اخلاص وروائع شيم يزينها الخلق الكريم رحمه الله ٠

م ـ هـ ـ د

العـــروض المختصـــر

اهدانا الشاعر الاستاذ الصديق نور الدين صمود كتابه الجديد العروض المختصر » وقد صدر عقب كتابه الاول « تبسيط العروض » الذى نفد اخيرا ٠

و « العروض المختصر » هو « كتاب » مطابق لبرنامج العروض المقرر على تلاميذ السنة الثالثة من التعليم الثانوى ٠

ونحن نهنىء الاستاذ على هذا الكتاب الجـديد ونتمنى كمـا قال صاحبه فى المقدمة : « أن ينال الـرضى ويعيـن الاسـاتذة على أداء واجبهم والتلاميذ على فهم هذه المادة » ٠

حفريات

شعر : أحمد المختار الهادى

أحبائى ... وهل لى فيكم أحباب
أنا سهرت هذا الليل حتى شاب
وصبرى كنت قد خلفته طفلا يتيما ناحبا فى الريح خلف الباب
وقلبى شمعة بيضا لاجلكم أنا أشعلته بالشوق حتى ذاب
ودربى مثل دربكم فما يوما به من آب
لانى عشت كل دقيقة للحزن أحقابا على أحقاب
وجردنى أنا صمتى كاشجار الخريف أنا بلا أثواب
... ولكنى أراكم من خلال الدمع والاهداب
أراكم تبسمون لتشهروا فى وجهى الانياب

أحبائى
برغم تاريخى الذى شوهتمونى فيه بالعار
برغم مسيرتى وحدى
وأنتم تضحكون الآن من تيهى وأسفارى
برغم طفولتى الكبرى التى فيها أعيش بوجهى العارى
برغم وقوفكم كى ما تسدوا الدرب فى وجهى
فلن أضطر يوما أن أبدل لحظة وجهى
أواجهكم ولا تدرون ماذا خلفت عجلات تاريخى على وجهى
أواجهكم بصمت طفولتى الكبرى
عنادى كامن فى أضلعى اليسرى
وصبرى لم يزل يستسهل الوعرا

أحبائى
أنا من أجلكم أحيا بلا حب
بلا قلب
بلا بعد ولا قرب

مسافاتى وأبعادى ساطويها
بلا معنى هنا فى داخل الهدب
تحجر كل إحساسى وصار كصخرة صماء فى الترب
تحول شكل أيامى الى نوع من الرعب
الى زمن خريفى مرير العصف والضرب
الى ما لا أحس به ولا أدريه يا ربى

أحبائى ولن أنسى أحبائى
فانتم دائما فى حزنى المغروس فى صمتى وأشيائى
سأبقى زهرة سوداء طالعة من الصخر
تمثل حرقة العمر
وراء سياج تاريخى الذى قد هده صمتى وإعيائى

أحبائى
أحبائى
تعالوا وانظروا ماذا تساوى روعة الحرف
ورنته التى تسمو عن الزيف

أ٠ م٠ هـ٠

وحـي الضمير

اهدانا الشاعر محمد الشعبونى نسخة من ديوانه « وحى الضمير » وهى كما قال : « بعض ما عندى من قصائد استلهمتها من روح فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة ونضاله وابقيت بعضها للجزء الثانى الذى سيضم فيما سيضم أناشيد الفتوة والوجدان وأغانى المجالس والاخوان » ٠

فشكرا للصديق الشاعر على هديته ٠

في الذكرى العاشرة لوفاة :

الدكتور محمد فريد غازي (*)

تقديم ونشر : عز الدين المدني

– 3 –

126 – لونتشسكي ، الثقافة العربية الموسوعة السوفياتية ترجمة فرنسية من طرف السيد ماكسيم رودنسون مدير دراسات في معهد الدراسات العليا بباريس (تحت الطبع في مشعل الشباب · تونس · أوت 1960) ·

127 – « لي روز » (الورود) 18 قصيدة فرنسية ترجمت الى ابيات شعرية عربية (موسي ، دوبو ، فينيي ، هوقو ، دي رينيي ، (قصيدان) يار ، جاك مادلين ، موسي ، لوران تاياد ، آنادي نواي ، بول فيرلين ، فرنان أيش ، مرسلين ديبوردو فالمور ، هوقو ، موسي ، فرنسيس بوف، ارنست بيروشون) · (وقع تحليله في بولتان دي ايتود آراب (نشرية الدراسات العربية) الجزائر · عدد 46 · جانفي – فيفري 1950 · ص : 24) ·

128 – الطاهر صفر : « مذكرات منفى » تونس 1960 · ترجمة عربية بصدد الصدور عند منشورات بوسلامة ·

129 – بول فاليرى (لي سيماتيير ماران) ترجمة عربية « المقبرة البحرية » في النداء · عدد 3 أفريل 1954 · ص : 1 و 4 ·

130 – بيتر أبراهامس : « لست بانسان حر » ترجمة عربية في مجلة الاذاعة، عدد خاص بمناسبة الندوة الثانية للشعوب الافريقية · 15 جانفي 1960 · تونس ·

131 – آلان : « تجار النوم » (منشورات المجلة الفرنسية الجديدة باريس) · ترجمة عربية في مجلة الفكر · السنة الخامسة (1960) · عدد 8 · ماي 1960 · ص 35 – 42 ·

(*) راجع الفكر العددين 5 و 6 – السنة 17 ·

132 ـ جان بول سارتر : « **مسؤولية الكاتب** » فى ندوات اليونسكو باريس 1957 · ص : 57 ـ 74 ·

133 ـ فيركور : « **صمت البحر** » ترجمة عربية لم تنشر ·

134 ـ رابيندارانات تاغور « **الآلة** » ترجمة عربية ، هذه المسرحية هى بصدد الاقتباس المسرحى لاذاعة تونس ·

135 ـ ماريا رينى ريلكى : « **كتاب الشفقة والموت** » ترجمة عربية لم تنشر ·

136 ـ أرتور رمبو : « **فصل فى جهنم** » ترجمة عربية لم تنشر ·

137 ـ سانت قزوبيرى : « **الأمير الصغير** » ترجمة عربية لم تنشر ·

137 ـ مكرر ـ « **أبو القاسم الشابى والخيال الشعرى عند العرب** » ·

دروس ومحاضرات :

138 ـ **مدخل للدراسات الاسلامية** (مطبوع بآلة الرونيو) دروس خاصة بشهادة الدراسات العليا (اللغة والادب العربى) 1959 ـ 1960 ·

139 ـ **التطبيق الدينى فى إسلام الأمس واليوم** ·

دروس ألقيت فى الجامعة التونسية 1959 / 1960 · الاجازة فى العربية (الدروس التطبيقية) :

ـ بيبليغرافيا نقدية ·
ـ « أرضية » الاسلام ·
ـ الحج الى مكة ·
ـ الأركان الدينية ·
ـ المسجد والصلاة ·
ـ مولد الاسلام : التطبيق الدينى فى الحديث والسيرة ·
ـ التطبيق الدينى فى « طبقات الحنابلة » ·
ـ التطبيق الدينى فى افريقية وخاصة بتونس فى عهد الحفصيين ·
ـ من الصوفية والزوايا : انحطاط التطبيق الدينى ·

ـ أثر الثقافة العربية والحضور الاوروبى والوضع الاستعمارى على الاسلام التقليدى ·

ـ التطبيق الدينى من خلال الادب المعاصر خاصة :

طه حسين : **الأيام**

أحمد أمين : **حياتى**

يوسف السباعى : **السقاء مات**

نجيب محفوظ : **زقاق المدق**

البشير خريف : **إفلاس**

محاضرات ـ رسائل :

140 ـ **الرواية العربية المعاصرة** الجامعة الجديدة تونس 16 ديسمبر 1959 (انظر : لابريس تونس 59/12/17) ·

141 ـ **تأثير الآداب الاجنبية فى شعر أبى القاسم الشابى** دار الجمعيات الثقافية تونس (اسبوع الشابى) 59/11/16 ·

142 ـ **أبو لينار الشاعر المحروم** جمعية قدماء تلاميذ الصادقية 1959 ·

143 ـ **المغرب والعالم الزنجى** رسالة الى المؤتمر الدولى الاول للكتاب والفنانين السود · باريس · مجلة بريزانس أفريكان عدد خاص ·

بحوث خاصة بملتقيات :

144 ـ **الوسط الزيتونى والتكوين الثقافى لأبى القاسم الشابى** مركز الدراسات للغة والحضارة العربية (معهد الدراسات العليا) 15 جانفى 1954 (انظر لادبيش تونيزيان 54/1/22) بصدد الصدور فى كراريس تونس عدد 28 (1960) ·

145 ـ **الاقتباسات فى اللهجات الدارجة العربية فى تونس** فى مجلة فليكس المجلد الثامن · 17 ـ 19 · جلسة 26 مارس 1958 ·

146 ـ **الحساسية الأندلسية من الخلافة الى الفتنة تطور وطفرات** فى « ذكرى ليفى بروفانسال » باريس 1960 (تحت الطبع) ·

147 ـ **الحساسية الأندلسية من ملوك الطوائف الى الموحدين تطور وظفرات** ٠ (بصدد الصدور فى مجلة الاندلس مدريد) انظر ايضا رقم : 146 ٠

148 ـ **توترات فى المدنية الاسلامية فى العهد الوسيط : مدن وبوادى** (بصدد الصدور فى ملتقى علم الاجتماع العمرانى الشمال افريقى) فيفرى 1958 ٠

149 ـ **بحث شفاهى واتخاذ موقف** فى ملتقى خاص بالرواية المغربية ماى 1960 ٠

روايات وقصص ٠٠٠

150 ـ **الهلال الاخضر يطل على الربوة** ٠ رواية ذاتية ٠ فصلان نشرا فى مجلة العصور الحديثة ٠ انظر رقم : 151 ٠

151 ـ **وتحت أقدامنا سوف تزعزع الارض** ٠ مجلة العصور الحديثة ٠ عدد خاص بالاستعمار ٠ باريس ٠ افريل 1956 ٠ انظر رقم ٠٠٠

152 ـ **الفجر الجديد** ٠ رسم الصور حاتم المكى ٠ السبيل 1947 ٠ قصة ٠

153 ـ **سفاتوشكا** ٠ قصة ٠ مجلة الالواح ٠ لبنان ٠ ديسمبر 1950 ٠ ترجمة فرنسية ٠ لابريس تونس 1951 ٠

154 ـ **الرجل الذى يبحث** ٠٠٠ الاسبوع ٠ ديسمبر ـ جانفى 1953 ٠

155 ـ **كيم** (قصة) طليعة 1946 ٠

156 ـ **الشفير** ٠ الاسبوع ٠ ديسمبر 1953 ٠

157 ـ **كلهن** ٠٠٠ رواية ٠ انظر رقم : 153 ورقم : 154 ورقم : 156 ٠

158 ـ **الشريد** ٠ رواية ٠

159 ـ المضطهدون ٠ (قصص) ٠

* * *

قصائد :

160 ــ **نايت** (ليل) (ديوان شعر بالفرنسية) تــونس 1949 • منشــورات الشمال •

161 ــ **ألحان** • ديوان شعر •

162 ــ **العلم** • الوزير 1946 •

163 ــ **أحب الحياة** • السبيل 1948 •

164 ــ **شعبى** • الحرية • تونس 1949 •

165 ــ **بلادى** • افريقيا الشمالية • تونس 1949 •

166 ــ **فى فضاء العدم** • مجلة الأنيس • تطوان 1949 •

167 ــ **ألحان الليالى** • مجلة الأنيس • تطوان 1950 •

168 ــ **العواصف** • مجلة الأنيس • تطوان 1950 •

169 ــ **الانسان** • قصيد ماخوذ من « نايت » وترجم الى الفرنسية • الاديب • لبنان • أفريل 1950 •

170 ــ **كليتى** • الاديب • بيروت • ماى 1950 •

171 ــ **فى العاصفة** (مقتطف) النهضة • تونس • 28 ماى 1950 •

172 ــ **قراءة** • قصائد عديدة فى اذاعة تونس •

173 ــ **المرآة** • لابريس • جانفى 1952 •

تلاخيص :

174 ــ **تاريخ الادب العربى من الاصــول الى نهــاية القــرن الخــامس عشــر** • الصباح ••• 1953 •

175 ــ **لويس ماسينيون : روزنامة العالم الاسلامى** • الطبعة الثالثة • باريس 1954 • الصباح 1954 •

ع• م•

عودي

شعر : البشير المشرقي

عودي في الليل مع السهد ... فلكم ألقاك على البعد
عودي في الليل معذبتي ... يكفيك الدمع وهل يجدي ؟
عودي غازلت البدر أنا ... ونثرت الدمع مع الورد
وسكبت العطر هنا وهنا ... وارتاح الليل على زندي
عودي ما زلت أحن إلى ... ثغر أفديه بما عندي ...
إن حان الموعد فاتنتي ... ماذا أعطيك وما أهدي ؟
أحنينا بات يمزقني ... لا شيء سوى أسف عندي
فعديني أنك عائدة ... كم يحلو العيش مع الوعد

حتام أظل معذبتي ... قلبا يرتاح على الجمر
أنسيت اليوم وعود هوى ... كانت بالأمس مني الزهر
تهنا فالشمس نغازلها ... والدرب نرشه بالعطر
خصلات الشعر أللمها ... ويدي تنساب مع الفجر
عودي عودي يكفيك أسى ... ما زلت خيالا في فكري
عودي ما دام العمر لنا ... ماذا حصلت من الهجر
سأظل وحيد القلب هنا ... أفنى كالبعض من العمر
وأناجي الليل بلا أمل ... حتى ألقاك ومن يدري ؟ !

ب. م.

الضفادع والصبيان

شعر : علي الشملي

نى فقدتك يا عصارة منطقى
وبقيت وحدى فى المدار المغلق
اجتر يأسى والأسى وشظايا فلقى ...

كل ما املك أن أقول
فى موسم الاتعاب والأرق
ان المخاوف لن تزول
فى جونا الخانق ،

كل ما أملك أن أتحدى
بميراث جهدى وأبى
سأبنى لكم مجدا
واهدم ساحة اللعب ،

كل ما أملك أن أثور
من غير اجراس ولا طبول
بالحرف يوم أحطم القصور
سأحرركم عرضا وطول...

لا أملك أن أستريح
وشراع زورقنا ممزق
البعض يدفع لعنة الريح
والبعض خبز صغارنا يسرق

لا أملك أن أجامل
وثمار لوزتنا صنادق

تمشى ونبقى فى السلاسل
نقتات من عرق المطارق ،

لا يا مناجم الفسفاط والحديد
جفت براعم حقلنا المزروع
لن يحلم الاطفال يوم العيد
بهدية مصنوعة من جوع

منفاى فى شرفات جرحى
احلام فارس بلا جواد
يا ويل من باع الثرى بالملح
من سندباد يكره الاضداد

بايعتكم فى ليلة خمر عتيق
وهربت كالاطفال من غزو الضفادع
حتى انتهى جسمى وأعيانى الطريق
لكن ماضى الخير لم يصبح مضارع ...

سأبيع من من صبية الحى تثعلب
وطوى المزارع لاصطياد النحل يجرى
وأبيع من كان اشترى بالمال منصب
فاذا فشلت بشورتى فبشعرى ...

ع. ش.

أضواء الفكر



• انتخب المجمع اللغوى بالقاهرة الاستاذ أبو القاسم محمد كرو عضوا مراسلا بالمجمع ونحن إذ نهنىء الاخ بهذا الانتخاب نقدم الى القراء نبذة من حياته وآثاره •

أ ـ حياته :

- ولد بمدينة قفصة (تونس) يوم 1924/7/1 •
- تلقى تعلمه الابتدائى بها ، والثانوى فى الزيتونة بتونس ، ثم بمعهد حر فى القاهرة والعالى بجامعة بغداد •
- فى عام 1952 نال شهادة الاجازة (ليسانس) فى الآداب العربية من « دار المعلمين العالية » ببغداد •
- اشتغل بالتعليم فى المعاهد الثانوية ببغداد وطرابلس الغرب وتونس مدة عشر سنوات •
- كان كثير النشاط والانتاج لفائدة قضايا التحرير الوطنى فى المغرب العربى منذ عام 1943 ، وله فى هذا المجال كتب عديدة مطبوعة منذ عام 1951 •
- أسس عام 1945 جمعية « شباب ابن منظور القفصى » ، وكان من مؤسسى « **اتحاد الكتاب التونسيين** » عام 1970 ، وشارك فى مؤتمر أدباء المغرب العربى بطرابلس سنة 1969 ، ومؤتمر أدباء العرب الثامن بدمشق سنة 1971 ، وساهم فى نشاط جمعيات طلابية وأدبية عديدة بتونس والعالم العربى •

• أسس (فى ميدان النشر) عدة مشاريع ومبادرات ثقافية منها ، سلسلة كتب شهرية صدر منها 31 كتابا ، ومجلة (الثقافة) ، و (اعلام المغرب العربى) ، و (مكتبة الشابى) ، و (وثائق قومية) ، و (نجوم الفن) .

• من مبادراته فى ميدانى التأليف والنشر اصدار اول كتاب عن :

- الشابى عام 1952 وثانى كتاب عنه عام 1954 .
- الطاهر الحداد عام 1956 .
- الشهيد أحمد رضا حوحو عام 1957 .
- خير الدين التونسى عام 1958 .
- عبد الرزاق كرباكة عام 1965 .
- ابن هانىء المغربى (الاندلسى) عام 1967 .
- محمد الخضر حسين (معد للطبع) .
- التيفاشى - العالم الموسوعى (تحت الطبع) .
- ابن منظور الافريقى (تحت الطبع) .

ب - آثـاره المطبـوعـة :

يشتمل انتاجه الفكرى والادبى على :

1 - كتب مطبوعة .
2 - ابحاث ومحاضرات منشورة .
3 - ابحاث ومحاضرات لم تنشر .
4 - مقالات صحفية واحاديث اذاعية .

اولا - الكتب المطبوعة :

وهى حسب تاريخ صدورها كالآتى :

1) ماى شهر الدماء والدموع فى المغرب العربى :

طبعة اولى - بغداد 1951 ، ص 104 . طبعة ثانية - تونس 1956 ، ص 96 .

2) الشابى حياته وشعره :

طبعة اولى - بيروت 1952 ، ص 240 . طبعة ثانية - بيروت 1954 ، ص 254 . طبعة ثالثة - بيروت 1960 ، ص 286 . طبعة رابعة - بيروت 1964 ، 286 . طبعة خامسة - بيروت 1971 ، ص 287 .

3) **كفاح الشابي او الشعب والوطنية في شعره :**
طبعة اولى ـ بيروت 1954 ، ص 112 . طبعة ثانية ـ تونس 1957 ، ص 112 .
طبعة ثالثة ـ بيروت 1960 ، ص 124 .

4) **حصاد القلم :** طبعة اولى ـ القاهرة 1954 ، ص 172 .

5) **كفاح وحب :**
طبعة اولى ـ بيروت 1952 ، ص 96 . طبعة ثانية ـ بيروت 1961 ، ص 130 .

6) **نداء للعمل :**
طبعة اولى ـ تونس 1955 ، ص 114 .

7) **التعليم التونسي بين الحاضر والمستقبل :** محاضرة ألقيت مرات عديدة .

8) **شوقي وابن زيدون في نوثيتيهما :** طبعة اولى ـ تونس 1956 ، ص 64 .

9) **العرب وابن خلدون :**
طبعة اولى ـ تونس 1956 ، ص 121 . طبعة ثانية ـ بيروت 1971 ، ص 152 .

10) **صوت الجزائر :**
طبعة اولى ـ تونس 1956 ، ص 126 . طبعة ثانية ـ تونس 1958 ، ص 110 .

11) **الشهيد أحمد رضا حوحو :** طبعة اولى ـ تونس 1957 ، ص 44 .

12) **الطاهر الحداد :**
طبعة اولى ـ تونس 1957 ، ص 104 . طبعة ثانية ـ تونس 1957 ، ص 104 .

13) **حديث رمضان :** طبعة اولى ـ تونس 1958 ، ص 112 .

14) **خير الدين التونسي :**
طبعة اولى ـ تونس 1958 ، ص 82 ـ طبعة ثانية ـ تونس 1972 ص ...

15) **هتاف للجمهورية :** طبعة اولى ـ بيروت 1960 ، ص 144 .

16) **آثار الشابي وصداه في الشرق :** طبعة اولى ـ بيروت 1961 ، ص 310 .

17) **عبد الرزاق كرباكة :** طبعة اولى ـ تونس 1965 ، ص 48 .

18) **دراسات عن الشابي :** طبعة اولى ـ تونس 1966 ، ص 160 .

19) **ابن هانيء المغربي (الاندلسي) :** طبعة اولى ـ تونس 1967 ، ص 80 .

20) **شخصيات ادبية من المشرق والمغرب :**
طبعة اولى ـ تونس 1958 ، ص 274 . طبعة ثانية ـ بيروت 1965 ، ص 334 .

21) دروس التاريخ الابتدائي :

أ ـ الجزء الاول :

طبعة اولى ـ تونس 1959 ، ص 96 · طبعة ثانية ـ تونس 1962 ، ص 115 ·

ب ـ الجزء الثاني :

طبعة اولى ـ تونس 1960 ، ص 104 ·

ثانيا ـ المحاضرات والابحاث المنشورة :

1 ـ تونس في كفاحها ـ جريدة « الجمهورية » ـ بغداد ـ ماى 1952 ·
2 ـ تشجيع المؤلف التونسي ـ « الصباح » 1965 ·
3 ـ الشابي من خلال رسائله ، محاضرة نشرت تباعا بجريدة « الصباح » تونس 1968 ·
4 ـ حياة محمد الخضر حسين ـ « العمل » 1969 ·
5 ـ حول التراث العربي بتونس في مائة عام ـ « الفكر » 1969/5/1 ·
6 ـ ساطع الحصري كما عرفته ، بحث نشر في مجلة « الفكر » 1970/2/1 ·
7 ـ الاسلام دين التطور ، نشر في مجلة « الشعب » تونس 1966/3/16 · وقد ترجم للفرنسية ونشر في مجلة « إبلا » (IBLA) عدد (116/115) عام 1966 وللانقليزية في مجلة « اسلا ميك رفيو » (The Islamic Revieu) عدد افريل 1967 ·

ثالثا ـ محاضرات وابحاث لم تنشر :

1 ـ التيفاشي العالم الموسوعي :

محاضرة القيت في عواصم الولايات خلال عام 1968 ·

2 ـ تونس في أدب الشابي :

محاضرة القيت في عواصم الولايات خلال عام 1969 ·

3 ـ العوامل المباشرة لنشأة الادب التونسي الحديث :

محاضرة كتبت بطلب من جامعة بغداد ·

4 ـ اطوار الادب التونسي الحديث :

محاضرة مماثلة (القيت في الجزائر خلال الاسبوع الثقافي التونسي)

يوم 1971/12/8 وفي تونس على منبر اتحاد الكتاب التونسيين يوم 1972/3/10 .

5 _ **ابن منظور الافريقي : حياته ، آثاره ، نسبه :**
محاضرة القيت في « ملتقى ابن منظور الافريقي » بقفصة (تونس) يوم 1971/4/9 وفي المركز الثقافي الليبي يوم 1972/2/11 .

رابعا _ مقالات واحاديث :

في الادب والتاريخ والنقد والاجتماع ، كتب اكثرها للاذاعات والصحف في تونس والبلاد العربية ، ويبلغ عددها زهاء الف مقالة صحفية او حديث اذاعي ، وقد نشر منها في الصحف والمجلات زهاء الثلاثمائة .

• اكتشاف هيكل بشري وآثار يعود تاريخها الى خمسة آلاف سنة بمنطقة هرقلة :

قام فريق من قسم ما قبل التاريخ التابع للمعهد القومي للآثار ، بحفريات على ضفاف سبخة حلق المنزل ، الواقعة على بعد 4 كلم من بلدة هرقلة (ولاية سوسة) . وقد اسفرت هاته التنقيبات عن نتائج بالغة الاهمية .

قبل البدء في الحفريات ، وقع القيام بعمليات سبر في أماكن مختلفة وذلك لتحديد مدى مساحة المنطقة ومدى العمق الذى اصبحت عليه هاته الآثار ، بعد ان غطتها مياه السبخة بطبقات سميكة من الاوحال الرسوبية في عصور مختلفة من التاريخ .

تقع اذا آثار سبخة حلق المنزل على عمق مترين من سطح الارض ، وهي ليست بناءات وشوارع وقصورا _ كما عهدنا ذلك في الآثار الرومانية او الاسلامية _ وانما هي عبارة عن أكواخ من الطوب أو القش ، أتى عليها الزمان فطمسها ، ولم يترك منها الا رسوما على سطح الارض ، وبقايا رماد وحجارة كانت تستعمل كمواقد للطبخ والتدفئة .

بجانب هاته الآثار السكنية ، وقع العثور على عدد كثير من الادوات الحجرية نذكر منها :

- نصالا حادة ، وصغيرة الحجم استعملت كنبال للصيد .
- قطا حجرية مسبوكة بطريقة جعلتها صالحة لطحن الحبوب .

ـ حجارة سوداء اللون ، وشفافة تشبه الى حد بعيد البلور ، وقع جلبها من جزر ليباري (LIPARI) بايطاليا ، وهذا يدل على علاقات بحرية متينة كانت تربط السواحل التونسية بالسواحل الايطالية منذ عهد بعيد جدا ·



وقد وقع الكشف عن بقايا عظام لحيوانات برية داجنة وحيوانات بحرية تتركب اغلبها من حيتان ، كلب البحر والجفالي ·

ولعل اهم كشف عثر عليه هو هيكل عظمى لشخص متقدم فى السن ، وضع بطريقة غريبة اذ وقع دفنه فى وضع مقدس منكمش ، بينما وضعت احدى يديه تحت رأسه والاخرى فوقه ·

وهذا يدل ان الانسان البدائى كانت له اعتقادات دينية تجعله يدفن موتاه ويحيطهم بشىء من العناية ·

وبعد تحليل لعينات من الفحم المشع C14 وجدت اثناء الحفريات ، وقع الكشف عن التاريخ الصحيح لكل مكتشفات سبخة حلق المنزل ، يعود اذا عهد هاته الآثار الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، هذا يقابل العصر الحجري الحديث ، الذى يمثل نقطة انطلاق هامة فى تاريخ الانسان من خلال كل هاته المعطيات نستطيع ان نستنتج بان ضفاف سبخة حلق المنزل كانت فى العصر الحجرى الحديث آهلة بقبائل رحل تعيش من الصيد البرى والصيد البحرى ، وتتعاطى من حين لآخر فلاحة الارض وتربية بعض الحيوانات الداجنة ، والجدير بالملاحظة ان ما يسمى بالعصر الحجرى الحديث ، يشكل مرحلة هامة فى تاريخ التقدم البشرى ، اذ بدأت الانسانية لاول مرة فى تعاطى فلاحة الارض مع ما يتبع ذلك من حاجة الى العيش فى مجتمع متكامل يستدعى الاستقرار والكف عن التنقل جريا وراء صيد الحيوانات الوحشية ، فما دامت الفلاحة توفر له طرق العيش فلا فائدة فى التنقل المستمر .

فالعصر الذى عاش فيه سكان سبخة حلق المنزل هو عصر ثورة اقتصادية واجتماعية كبرى خرجت بالانسان البدائى من طور الصيد والتشتت الى عصر الفلاحة والاستقرار .

عبد الرزاق قراقب
قسم ما قبل التاريخ
بمركز البحوث الاثرية والتاريخية

• مجلة « العلم » :

هى مجلة علمية شهرية جديدة صدر العدد الاول منها خلال شهر مارس 1972 . وظهورها حدث له أهميته فى تونس لانه لم تصدر ، حسب عملنا ، مجلة علمية بحتة منذ دخول الطباعة الى تونس .

ومدير هذه المجلة ومؤسسها هو الاستاذ الدكتور البشير التركى الذى سبق له أن نشر مقالات فى مجلة « الفكر » . وفى هذا العدد الذى صدر بعد البسملة بآية قرآنية : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » عدد من المقالات العلمية التى تتناول الكشف عن التراث العلمى العربى الاسلامى وتفسير الآيات القرآنية تفسيرا علميا بحتا وبسط النظريات العلمية الجديدة ونماذج من الدروس فى الكيمياء والرياضيات والفيزياء . ونحن إذ نهنىء الاستاذ الدكتور البشير التركى وهيئة التحرير على هذه البادرة الطيبة ونقدر ما ينتظرهم من مجهود جبار فى تذليل صعوبات كثيرة ، نتمنى للزميلة « العلم » عمرا طويلا ونجاحا مطردا .